الإهداء

يقولون إن الجنة تحت قدميها، وأنا أرى عينيها الجنة، وبسمتها حورياتها، أنت نفسي وأنفاسي. إلى واجدة الطهر: أمي سناء الحسيني.

ولأن الحياة باعدت قبرك عن نظري، لم أجد ورداً تليق بقلبك، فزرعت ثلة أقلام رصاص. إلى والدي: أحمد سلمان.

إلى نورها الذي أتاح لعمري خلوده، حين لمح نورك خلق وحيي: الآنسة نور السيد.

الراعي الاجتماعي لموهبتي التمييز في كفالة اليتيم

ولكل من دعم مسيرتي الأدبية.

شكراً.

كان من فجائع السعادة أن أكتب هذه الرواية

تجرُّ الأيام بعضها، وتمضي مسرعة لتتغير ملامحنا من طفل بريء إلى طفل كبير يدرك شيئاً ويجهل أشياء..

فربنا إن أعطيتنا علماً، فاجعله نافعاً خالصاً لوجهك، وإن أخدت منا عضواً، فاجعله سابقنا لجنتك، وإن وهبت لنا وجعاً فداوِ أنت كسره.

ربنا كلما تقدمت بنا السنون، اجعلنا نتقدم في حبك، وكلما وهبتنا أياماً، فاسكب فيها رحمتك، واجعل سنوات عمري إن قصرت بداية لنوال جنتك، رب إن كتبت لي عمراً فاجعله لأجلك.

بيان سلمان

انطباع حول روايتي من الكاتب الدكتور: جمال سليمان.

شكراً لأنني اكتشفت امتداداً جديداً لكتاب رائعين بحجم غسان كنفاني، وإبراهيم نصر الله، وجبرا إبراهيم جبرا، وحنا مينا.

اقرؤوا حلمها، ولا تتألموا كثيراً.

فقط كونوا على قدر الحلم.

"كحلم مضى"

لم أكن أعرف أني عشت ليال من البرد والقصف في مخيم البارد، قبل أن أقرأ حلمك الذي مضى يا صديقتي ..

يا صديقة "أمل" ..

وأخت الشهيد البطل ..

لم أكن أعرف أن آمنة التي قصفنا بها إبراهيم نصر الله أقامت أعراساً للوطن بمعية أخيك الشهيد ..

لم أكن أعرف أن صفية التي بكت على وطن مات، وهو يبحث عنه غسان كنفاني في حطام ذاكرته .. وفي ريش الطاووس .. وموانئ حيفا التي لم يغرق موجها اليهود حين اغتصبوها ..

لم أكن أعرف أن صفية كانت تعرف أن الوطن .. ألا يحدث هذا كله !

لم أكن أعرف أن ياسر عرفات كان يعيش بداخلي، وأنه كان يدير الانتفاضة من خلف جدران منزلنا، وكنت شاهداً على كل من خانوه، لم أكن أعرف أني سأتألم أكثر ، كلما مررت بين سطورك بيان !

لا طاقة لي بكل هذا الحزن، إن القلوب حين تبكي تسمع نشيجها فوهات المدافع قبل البشر، وحين القصف، كنت جداراً يتكئ عليه المجاهدون، لا أقول رفقا بنا، أمطرينا بوابل آخر عسانا نفيق، عسانا نرجع، كلي ثقة بأن إبداعك لن يتوقف هنا، والحلم الذي مضى سيخلفه حلم أجمل، تحية إجلال وتقدير أيتها الرائعة.

بانتظار مزيدك.

مودتي واحترامي.

لا تعامليني كعدو، فأنا لست عدوك،

ولست أنا مضنيك،

لست غير بائس رتع من أسى الأقدار،

وحار واحتار، ولم يشعر بفرق بين ليل أو نهار،

كلاهما واحد، فلا الصبح يأتي بجديد، ولا الليل بسواده يمحو الماضي المقيت.

جمال سليمان

اعتقدت يوماً، أن الليل مصباح العاشقين، وأن القدر عقوبة المناضلين، وأن السماء عقدة الأرض، فمن السماء الأمطار تسقط ، وفي الأرض المياه تسجن.

في أعالي السماء يُنفخ ببوق قرمديّ اللون لا حواف له، الله نور الجميع، ينادي بالأرواح جميعاً.

أما في الأرض، كل الأرواح تجتمع، فتثور بعد اجتياحها الموت ومفارقتها الحياة، إلى السماء حيث أبواق الملائكة، قد صرخت لها.

وأبكاني ذاك الحدث العجيب، التباين الذي به أو منه، اكتشفت أن الله إذا أراد قلباً لقلب، قال له كن فيكون، حتى ولو كانت المسافة بينهما أرضاً وسماء، أيحب العبد آلهته؟ أو يعبد الماضي سطور المستقبل، أم بجنونه الخالد، أيعقل للمغني أن يعشق نشازه؟

لا يخاف النسيان، امرأة، غرقت به، اتخذت قرارها بسطوة الحكام، وبإغداق الحنين لكسر جدائل صوتها، لإبعاد طفولتها، عن خبثي، لإقناعي مدة كافية، أن ركام رجولتي، لا تحتمله أنوثتها، فجمعت أشيائي ثم، سقطت لنبرات صوتها قتيلاً، كانت كمن يأسر الشمس بغروبها، وكمن يقتل المستحيل، ببحتها، كانت ملكي، وكانت ملكتي.

عندما رفعت ستارتي، شهقت وفي بلاد الموت ساحت، رأت كل مجازري فسقطت أحلاهما قبالتها، قتيلة.

كنت أخاف أن تذرفي دمعة لأجل أي شخص، كانت دموعك رصاصات تغتالني، فذرفت السيول، بسببي، أبكاني هذا الفراق يا حورية، أبكاني لدرجة أني عندما قررت الرحيل عنك، ابتعدت قليلاً فأصبحت كل الأصوات من حولي، أصبحتِ انهيار الثلوج ، وتحطم السنين.

أصبح العازفون يعزفون لحنك، أصبح السواد بياضك، أصبحت العتبات حطامك، والمدائن ملامحك، أصبحت كل دمعة من عين ذرفت، وكل سقم أصاب البشر منذ الأزل، أنت الشفاء، أصبحتِ الوداع والشوق واللقاء، أصبحتِ الأفكار حين تثور والقلب حين يخفق، أنت الأحلام حين تحققت، كل شيء، يذكرني بك، أراكِ في مرآتي، عدت بصخب الماضي، فوجدت أني العاق وأنك الراهبة، أوتصلبين حبي؟ لأن حجم الموت داخلك، فاق حجم الحب فكسر بك الحياة؟

أأعود لأكتب الاشارات الاستفهامية، وأنت الأسئلة والأجوبة، وأنت الياسمين برائحته. أوجعني ابتعادك، يا حوريتي، أوجعني لدرجة أني، منذ افترقنا، سرقت قيود روحي من سجون ذاتي لأتحرر منك فما وجدتني إلا لبحتك سجين.

توقفت عن كتاباتي، بسطورك لم أجد قلبي، ضعت هذه المرة ، ولم أجد سوى الألم، ألا تغادري قلبي الجريح، فأنت النور الذي لا قدرة للشمس على حجبه.

نسيت أنكِ راحلة، أكتب لك آيات العشق، نسيت أنكِ في مهب الغياب، وأني في مهب الضياع، وإن حبنا، حب في مهب العواصف، ورغم جرحي، نسيت أنك راحلة.

كنت أحبكِ عندما تبتعدين أكثر، لكن، هذه المرة في الرحيل الكبير لم أحبك أكثر، قلبي الذي يرفض أن يصدق أنك راحلة.

هنا، بسمتك، جرحك، عطرك، إيمانك، بكاؤك، وكل الوجوه ملامحك، وكل الأصوات نغمك، وكأن لكِ حولي أربعين ألف شبيه بعدك يقتلني على مهل، سهمك القاتل. لا شيء يوجعني يا حبيبتي، بعد هذا الرحيل، حبك الذي استطاع اختراقي، احتراقي، أعيدي لي الأرض كي أستريح فأنا اليوم باكِ لحد الملل، أوَتسأم الثكلى من النحيب؟

كذلك في ليلة عارية، قرر الله الحب الرهيب، كان حبك في قلبي مصلوب، بدأ القدر بغرس شتلاتي. لمحت ظلك فنزعت من البساتين الورود ، بنيت السدود فحصدت الشلالات، نفخت بقوة حورية، ثار الشلال ثم رآك لي قادمة لم يستطع الاحتمال، سيول عشقي اكتسحت مني الصمود، رمابي عشقك لحدود اللامدى، جف الشلال، كانت عيناك لمشنقتي الحبال، قلت لي عطشى فقطعت شراييني وسقيتك المحرم المحال، قلت لي جوعى فسرقت من الحياة غزلها، وأطعمتك من عشقي الأبدي، ثم لروحي غفرت زلتها. إن قابلت في السماء القمر، أتحسبين نظري للقمر خيانة؟ أوَتُخانُ الأنثى مع القمر؟ مع الطبيعة، مع الأحلام، والمطر، أوَتكمن في ورودي البيضاء خيانة حمقاء؟ علني خنتك ذات يوم مع الأمل، مع المدى والحلم والسقم والوداع والوتر، أوليست كل الأشياء تحدث في سطوة السماء تحت ظل القمر، أوليست الحياة مجرد سخرية القدر؟

أأخونك يا وحيي، مع أنثى فاتنة أخرى تمتلك كل شيء، تسمى: الحياة.

عندما تقتات في جوف اغترابك الغفران، عاد ظلكِ لي، وأنا فار من نفسي؟

ورأيت أثناء عبوري داخل نفسي إلى حافة الصواب، مررت بذكرياتي معك فأضعفتني، خلت أن الذي يحجبك عني هو الظلام، فألتمس لكِ الأعذار. لكن بعد أن فاقت خطاك عالمي تحررت منك، ركضت وأنا أحمل المعصية على ظهري، حاولت أن أعد عدتي وأعود لي قبل أن أعود لكِ، حاولت أن أهرب من بين السطور لكن، وجدت حبك في دمي قطعت شراييني، علني أنزفك، فجرى دمي قبل أن أقتلك، تذكرت أن الشلال المنهمر مني ليس أنت، لم أقتلك بعد يا عذرائي ما قتلتك، بل قتلت نفسي.

من مذكراته، صدام.

كانت تحبه جدا لدرجة الكره،

فنحن لا نكره إلا عندما نحب جدا،

ونتعلق جدا،

كرهته للحد الذي كانت تريد عناقا يدفن قلبها بين ضلوعه،

فيضربه بنبضاته حد النزف.

جمال سليمان

بعيد أنت عني، بعيد أنت عني، كنت أغنية قهري واعتزالي، كنت الألم والغربة، كنت أنت في بعدك سجاني، كان قفصك سعادتي، كانت سلاسلك الحديدية غزلي، كانت سجائرك المحروقة دموع فرحي، كان وجودك حنيني وشوقي، كان صوتك إغمائي ونبيذك سكري، كانت صورتك لحني، كنت بقلبي وتر صوتي، عندما رآك، أصبح ضريراً لا يبصر سوى حلم واحد، هو قلبك.

كنت طيشي وتهوري، كنت يقظتي وإدماني، كنت القمر عند اشتعاله، والشمس حين شروقها، في عينيك كانت كل المشاعر تجتمع، أصبحت حالة حبي لك هي الأبدية، كيف باغتَّ القدر فظهرت؟ كيف قطعت كل وديان العالم وقبلتني من رأسي؟ ثم همست في أذني: "أنت مثل الموت". لم أفهم كلامك يومها، كان كلامك موتي.

صدام: اسمك إن أعدت ترتيب اسمه فسيكون حياتي، اسمك يوحي بالخوف لكن أنا، أحب اصطدامي بأيامك، أحببتك، أحبك وسأحبك، لو صارت المشاعر جليداً، ولو أصبحت الحروف قيوداً، ولو أقبل الظالم قسيساً، ولو أصبحت السماء وهماً، والنجوم كفناً، سأبقى أحبك وأعزف لك وحدك، وحدك أنت تستحق الخلود، وحدك تبقى مسجوناً في مخيلتي، عيونك وحدها القادرة على غزو أحلامي، تحتلني أنت، تقيم بي الحروب، أنت الظالم والمظلوم، أنت القوي والضعيف، أنت الحاكم والمحكوم، أنت الوجود والفناء، أنت الحياة بموجوداتها، الفناء بألحانه، وحدتي، فرحي، قربي وابتعادي، وعيي ولاوعيي، أعدني إلي دون مناقضاتي، أعد لي السنين، أعدني طفلة، أعد لي السنين معك، أعد لي الماضي، لكن كيف تعيد لي ما أخذته مني؟ لا تستطيع أن تعيد ما سرقته مني، أعد لي حزني وانكساري، أتعيد لي يتمي لأغدو ثكلى؟

كنت حبيبي، وأبي، وأخي، وطفلي، كنت كل شيء، كنت كل ما أغنيه، كنت أملي وأحلامي، أعد لي دموعي التي ذرفتها بسببك، كل شيء معك يؤلمني، لم

أحببتني إن كنت ترغب بقتلي، أوَيحبّ العبد آلهته؟ لأن صفة الألوهية، تخيف، استيقظت من أوهامي لأرتطم بقيودك، هذه المرة لم تعد قيودك سعادتي، أصبحت تقهرني هي بشدة وبقسوة تسجنني، أصبحت كل سلسلة من سلاسلك، أصبحت سجينتك لا بطلة أشعارك، اغتلت القافية يا عزيزي، وما عاد الحبر يكتب، فوزعت أشطر القصيدة فأصبح الضجيج داخلي يعلو، ويعلو، ويعلو، يأن، يشهق. يبكي، ويرميك خارج مخيلتي، لكن تعود مع أنسام الصباح، تعود مع عصافير الوقت المهاجرة، تعود لي مع أشعة القمر، أراك اليوم في عقارب الساعة، في صور الماضي والحاضر والمستقبل، منذ افترقنا أصبح كل شيء يخيفني، لم تعد الأيام نقية، دنسها حبي لك، رقصي معك، فرحي بك، منذ افترقنا أصبحت السنون تمضي بحذوة حصان تعاني التلف، فما عادت تمر السنون. قلبي الذي أحرقته نسي أنه المحال، أنا القارئ والمغني والكتاب والسطور والوجع المكتوب، أنا هو هذا الصدى المكبوت، وصرخت باسمك، صدام. جاءتني ملاكة صغيرة همست لي بهدوء حرفاً، اسم هذا الشخص يقاس بالمستحيل، إن كنت تطلب يديَّ لمراقصتي، لم قطعتها عندما كنت طفلة، ثم أعدتها، ثم أخدتها، لم اقتربت وسفحتني، استبحت موتي ثم بعثرت في الروح، ثم أعدت قتلي مرة أخرى، لم أقدر على استيعاب بقائي، فرحلت، كما أدمنت سماع صوتي، عزمت على جمع أوراق لأكتب لك النهاية دون أن تبدأ، سأكون البطلة، التي تمردت على كاتبها، قلبك الذي استطعت أن أسطره، كما يشطر الظل، ظله.

إن كنت قتلتني فروحي ها هي قد عادت فرحب بها، إن اعتقدت أني مت! فأنا أقرب منك إليك، أحببتك يوماً، وكرهتك وسع المدى للأبد، أنت قيثارتي المهتزة، التي حطمتها، رميت بك معها إلى حيث ابتلعتك أسماك القرش، لكن عندما ابتاعت والدتي لي طعام الغداء ليومي، أدركت أنك وجبتي الشهية، فعادوت رميك مرة أخرى،

لكني هذه المرة نسيت أني قد خبأتك، بأحشائي، علقت ببحة صوتي، وألقيت لي بأشعارك قبل أن أنام، اكتحلت بك، لون كحلتي يبدو مختلفاً بك، أخبرني، كيف أستطيع أن أخنقك؟ يا أبله!

تختلط أنت بأنفاسي، من مذكراتها.

اليسار

أذكر قصة الوفاء التي جمعت برانكا ببولو، أسطورة فرنسية قديمة، بولو الذي يمتلك عاطفة أقوى وأشد إخلاصاً من البشر أنفسهم، استحق بولو لقب سيد الذئاب، كبرياؤه لم يتحقق يوماً، كان خطيراً جداً، نقطة ضعفه الوحيدة هي الحب، كان مغروماً بزوجته أكثر من الغرام نفسه، عزم الصيادون على اصطياده، لم يستطع أحدهم حتى جاء يوم وضع فيه أحدهم خطة لاصطياد زوجته، فنجح وفقد بولو صوابه فوقع أسيراً في شباكهم، عندما وضعوا الخشب في فمه وأقفلوا عليه بالحبال انحنى منكسراً كأنه يقول، لقد انتصرت علي، فافعل بي ما شئت، وبقي لأيام لا يأكل حتى مات لشدة حبه لها.

منذ زمن كان الصراع بين الإنسان والحيوان، وبين الحيوان والحب، فهل من الصحيح أن نفقد صوابنا عند فقدان قلبنا؟ أو الأصح أن نكمل حياتنا دون مشاعر؟

حتى الذئاب التي توصف بالمكر، مخلصة لمن تحب. الصياد كان حزيناً لأنه قتل حيوانا، وعلى الرغم من حيوانيتهم، هم أشد عاطفة من البشر.

السؤال الذي كان يشغل مخيلتي، فيوقد فيها تقاطيع جنوني هو: هل من الممكن أن نحيا دون روح ودون مشاعر ومن دون من نحب؟ أم أن الحياة أحياناً تكون عصية الفهم صعبة التمييز، ما بين العقل والمشاعر؟ أم أن مشوار الحياة يكمل سيره دون أن يأبه بمن معه ومن نظر من القارب، ومن أوقف الشراع؟

هل الحل أن تحزن، وتبكي، وتتألم؟

أم الأمل هو المطاف الأخير للخروج من الحياة بروح السلام؟

فيوماً بعد يوم يصبح الأمل أقل، أحياناً لن يطفئ الجليد، الحريق، بل يزيد من ناره ناراً. رب حريق أفضل من برود يدفعك لليأس، مهما كانت حرارة النار، فهي جليد!

تُبقي في روح الشخص شيئاً من الاندفاع نحو الحياة، مع بروز الخوف من المجهول، الجليد موت ويأس في تبخره، والنار إرادة واندفاع وأمل حتى في تجمدها تلعب، مع أن لون الجليد الأبيض إلا أنه ليس الصواب فليس كل أبيض نقي، هادئ!

أحياناً، يكون نتيجة الأبيض، أسود، ونتيجة الأحمر، أبيض، وإذا مزجنا الألوان مع بعضها نحصل على الأبيض، فالنقاء فطري والأسود مكتسب، والاثنان فطرتهما سيئة، فرط التقاء يوقع صاحبه بشباك السوء، وفرط السوء يوقع صاحبه في شباك ذاته، كل النجوم تجتمع الليلة فترسم وجهك، تتقمص صورتك ببراعة، ليست نجوم شهرتي، لا إنها، نجوم الليل، حين مشى المجهول بي ومشيت به، تساءلت، هل تصبح المغفرة انتقاماً؟ ماذا فعل بي حب رجل يحب الشعر والانتظار؟

هل الحب ممكن الاستمرارية أم أنه أصبح على الرغم من تعاطفه مع نبضاتنا محالاً؟ على سبيل الفراغ أو الملل منه، تحتاج أحياناً أن تصرخ بأعلى صوت ليدرك العالم حجم المأساة التي نعيشها، أو نصمت على الرغم من لوعة الصمت في حين الصراع، إنها فاجعة، أو تلك بحد ذاتها ما تسمى بالعظمة!

أقتل ضجري، فأضجر بك أكثر، أعود لجنوني بك، أعود لخيانتك، فراقك يجعل مني جبلا، جبلا منهكا، خاسرا، منكسرا، سيصبح بعد قليل، رجلاً، تبعثره الريح في أرجاء العالم، فأوقف كتاباتك لي، لأني منذ قررت الغناء، غنيت للثورة، للكفاح، للغد المتسلح بالحب، لأني قاتلك من صغري، أكره نفسي، لأني تمنيت يوماً لو أن الله جمعني بك منذ الأزل، وغاب عن مخيلتي أني أعرفك حق المعرفة.

أول أغنية قمت بأدائها كانت أبيات شعرية، أتذكرها، كانت بصوتي، قوية، حزينة، مؤثرة، كانت قد أبكت الملايين، وشهقتُ وفاجأني اختناق أثناء أدائها: نفيت واستوطن الأغراب في وطني، ودمروا كل أشيائي الحبيباتي.

فهذه الحياة كانت بالنسبة لي أشبه بطفل بريء يلهو بإصبعه، ويبكي متعطشاً لثدي أمه، وكنا نحن الكائنات الفضائية التي احتلت دمى الطفل فتحول الطفل في ثانية إلى رجل، هي لم تكن حمقاء غريبة، بفعلنا أصبحت غريبة وأصبحنا بدورنا غرباء، فانعكس الانصهار بيننا حتى خضنا معها حروباً ضارية، كنا فيها الطرفين الخاسرين، لمرارة الانتصار.

هي ذكريات قصتي فأسرني بين الحجارة، قصتي كانت قصة أم البدايات وأم النهايات، كانت فلسطين الضائعة، كانت نهر البارد، بأغنية حزينة،

كنت كاتبا قاسيا، كيف لكاتب أن يكون قاسياً، وأن يكون ملتهباً بالأحاسيس الحارقة؟ أم تراه يشتق حرائقه من سطوره ويعصف بسوطه على جلود الحروف المرتعشة؟ أم عله أيقن أن صوتها أكثر صخباً من ضجيج مدافعه؟

متعة أن تعذب جامداً تماماً كمتعة أن تحب عملاقاً، لن يفوز أحدهم ستأتي الفراشات، تتناثر أصداء الرحيل على قلوبكم وتمتص رحيقها من مشاعركم وتجمع فوضاها المتناثرة كيفما كان وتغادر، ثم بعد أن راودني ذاك الحلم الغريب استيقظت منهكة منه، منهكة بالتفكير به.

نعم، الجنود هناك خلف الحواجز، في الطائرة المروحية، في الدبابة، القناصون فوق الأبراج يعرفون السر، ولهذا السبب يصوبون نيرانهم نحونا، لا يصوبونها نحونا كي يقتلونا، يصوبون نحونا كي يقتلوا الحرية التي تختبئ فينا، الحرية التي نطاردها طوال عمرنا كي نمسك بها.

ابراهيم نصر الله

لم أعهد قط لبوابة الأحلام أن تفتح مصراعيها محتضنة الواقع، صوت حبات المطر تتساقط فتبلل الحياة، صوت الثرى يضمّ المطر، والأزهار تنتظر الهروب، تبدو الأشياء من حولي هادئة، فلمَ أنا غاضبة وكأن جيشي المغول والتتار اللذان أنهكا العالم بسرد قصصهم المروعة قد مرّا داخلي، قلبي ليس مرتاحاً لأنين التخاطرات السياسية من حولي أوَيعقل أن تكون الأمطار، نهاية يومنا هذا؟ أم ستهب بعدها عاصفة قوية، تحتضن البشر تقلع الشجر، كل شيء، كل الأماكن، كل الحوارات كانت في عيناي تتجسدان على أشكال مياه أمطار مالحة سمَّوها بالدموع؟

- أيش مالك يا مرة! ليش البكا من عند هالصبح؟
- فش إشي كنت خايفة بس.
- خايفة؟ من إيش؟
- خايفة من الوضع بالمخيم .. ما أنت شايف بقولو مجموعات إرهابية عم تحاول تتسللو .. بديش ولادي يتشردو .. يتغربو .. يطلعوا زي ما طلعوا أهلينا .. بدي نرجع من مخيم نهر البارد على فلسطين .. مش على وجع جديد .. ما احنا اكتفينا تشريد وذل وقهر .. فلسطيني ممنوع تعيش زي مايقولوا احنا شعب بستحق الحياة .. خايفة هالدنيا تبعدني عن ولادي ..
- والله اللي بيسمعك بتحكي هالحكي يقول ولادك عندك ما أنتي من يومين بعتيهن عند أختك عحمص!
- وإن متت أنا؟ وإن متت أنت؟ وإن ..
- تفائلي بالخير .. ربنا لا يجيب ضرر ..

- عم فكر بواقعية .. عم فكر لو التاريخ كرر نفسه ولو عملو للتغريبة الفلسطنية كمان جزء!
- لو رجعنا شيعنا ناس منحبها .. لو الناس بكيت علينا .. لو القرآن والختم تقروا عروحنا ..
- ولك طولي بالك يا مرة، حاجتك هلوسة عاد بصرش اشي غير اللي ربك كاتبو، بعدين وإن لا سمح الله صار اشي منطلع من المخيم فترة ومنرجع فش مشكلة.
- مش القصة قصة مخيم أو غيروا .. القصة قصة وطن، وطن عم يتوجع فلسطين بعيدة عنا .. وقريبة منا .. أنا لاجئة وأنت لاجئ والمخيم لاجئ ولك شوي تانية رح يعملو الناس اللي بقلب فلسطين لاجئين! وجعي عولادي هو وجع فلسطين علينا، هو وجع فيروز اللي غنت وحدون بيبقوا متل زهر البيلسان مش كانت فيروز متلي موجوعة! وبكت.

-تبفكرة ما يفقد منا عنوة. أشد إيلاماً من خياراتنا، بغض النظر إن كانت خاطئة أم سليمة... فمن فقد عينه بحادث قدر ليس كمن فقدها حين قاتل في الحرب. ومن أخذ الله منه والده بسكتة قلبية سببها السرطان، ليس كمن قتل والده لأنه منعه من المخدرات.

إن رسومات الغيبيات في أذهاننا تجسد أفعالنا على أرض الواقع، والتي تغدو محض أفعال شرسة أو لينة حسب الفاعل وردود المتلقي، لهذا الفكر يوجه حياة الإنسان وإنْ سيَّرها بشكل صحيح، فإنه يسير الإنسانية.

تلك فقيدتنا حاليا، امتزجت سعادتي بحزن فرحه، قاطع دهشتي وبحزن قال: دوامة الجهل هذه إذا لم تنتهي سننتهي. رغبتُ في تقييد الحزن الذي طغى على الحوار، سألته ما أكثر قيمة تؤمن بها في حياتك؟

-الفعل الطيب لا يُنسى، الكلمة المسيئة لا ترحل.

- وعاودنا الابتسام، شكرته كثيرا وغادرتكيش مش حرزانة القصة.
- مش احنا انخلقنا من رحم امنا واحنا منبكي، هو صح كل البشر بخلقوا هيك، هي فطرة بس احنا دموعنا كانت مالحة اكتر وكانت اغزر كنا منبكي عأمنا اللي ضاعت وكنا منبكي عشانا لاجئين ..
- أنا بديش ولادي يربو أيتام .. أيتام مرتين! فيش حدا بحب اليتم .. فيش حدا بحب اللجوء! معاناتنا أقوى من أني أخلق حروف اكتبها معاناتنا دفنت كل الحروف وذبحت كل العالم وصرخت من ورا صخرة كبيرة:أيها المارون بين الكلمات العابرة، احملوا أسماءكم وانصرفوا. بعدين لقلك.. نسيت الكنفاني اللي قال "إن الإنسان في نهاية الأمر قضية" ما احنا تولدنا عشانا قضية، وكيف بنسى هالقضية، واحنا فوق مالنا قضية، حملنا التاريخ وجع أكبر قضيته! لما بحكيلكو ببكي مش عشاني حدا بحب الدمع! عشان أنا أم! لأني بلا هوية.
- طولي بالك ليش هالحزن كلو كنك نسيتي الأمل.
- لأنو مالي حدود .. لأنو مالي شجرة إلي أنا، لأني بلا أمي وبلا عصفور .. لأني ما بغني موطني ، موطني ، لأني بغني استشهد يا عالم علينا وعبيروت ، لأني يتيمة وأرملة ثكلى، لأنو الوطن عرض البني آدم ، لأنو من يوم تركنا بلادنا بعدني بردانة ، بعدها بالصيف بتشتي ، بعدها النجوم

بتبكي ، بعد والقمر بغني للبحر ، هدي يا بحر هدي ، طولنا بغيبتنا ودي سلامي ودي للأرض اللي ربتنا ،

- وآخرة هالدموع اليوم.

- لما يوقف الشلال عن النحيب ، وتوقف الورود اللي عالقبور عن الصلاة ، وتهدى شوي المجنونة ، ولما يكون في القلب جسد تاني وللعقل فكر تاني ، لما أقرر أصير خاينة ساعتها ببطل ابكي عبلدي ،

- القضية مش قضية دموع ، القضية قضية وطن ، قضية شعب مقهور عم يصرخ ، عم يصرخ ما حدش سمعوا . لحدا ما انبح صوتو فصار يكتب ويكتب ويكتب وما حدا قرأ ، لحد صار يمثّل يمثّل وهو منبوذ الأضلاع، وهو فاقد الحواس، وهو هيكل إنسان وكمان ما حدا حضر مسرحيتو ، وبس بعد ما صار ظل بشر ، رجع كمان مرة صرخ وغنى وكتب ومثّل وحب وانحب وصلى وقام الليل ورجع صرخ وصرخ وصرخوصرخ عرفت هاد الحدا مين؟ هدا الشعب الفلسطيني ،

- هدول احنا ما منموت ، بس يموت حدا بعيش ألف حدا ، نحنا اللي بكّينا اليهود ببيروت نحنا اللي ردّينا حرمة حائط البراق ، حائط المبكى إلنا! احنا بس منبكي عليه مش يهودية مش سامعة بالشرف بتحكي عن الأصل والتاريخ والحق ،

- الحق انخلق النا ، فلسطين بكل دماءها عايشة ، بكل صرخاتها الساكتة ، مسموعة احنا مش بس بشر عاديين لا ،

- احنا اللي اخدوا بلادنا وزيتونها ، ورمانها ، وزرعوا بدل العنب غرسوا الخيام ، عشان احنا نبكي فيها ، احنا اللي بكينا بالخيام بس زفينا ثوارنا نزفنا عليهم دموع، فرحنا، هدول احنا التي تعلمنا ، اللي نشرنا الثقافة بكل بلد لجأنالو احنا الحب والجرح والايمان والسلام والثورة ، لأنو القصة أكبر من إني احكيها، ومن أنو تتحلل في قلبي، وتطلع وتملي هالدنيا صراخ وحنين ، حنين وشوق لأم رحنا وتركناهم يكتب علينا ويكتبنا عليها ،

مش عارفة إذا راجعة أحضن شمسها ولا لأ، بس عارفة أنو شمسها إلنا وإنها النا ،

عارفة إنها راجعة بس تمسك سلاح وتمشي زي ما قال أبو عمار ، شهيداً شهيداً ، شهيداً ،

–كلنا عنا هالإيمان، طولي بالك يا مرة الله يجيب اللي فيه الخير، ونحنا راضيين بما قدر وقسم.

وكانت زوجته في الواقع تتحدث عنه، وتبكيه معها، كما بكت جراح شعب ولفت شهقات أنينه، يتخلل من بين دمعاتها، لكن ما ذرفتها، كي لا يلون الحياة فجائعاً أكبر. مسح دمعها ودمع قلبه الذي كفكفه في الظاهر بينما ترك جريانه في داخله يغرق الدنيا انهماراً.

- ثم غنّت زوجته بقوة وحزم فهي كانت من مغنيات الثورة، وأورثت طفلتها صوتاً، وطفلها ثورة.
- اشهد يا عالم علينا وعبيروت.
- اشهد بالحرب الشعبية.

- واللي ما شاف من الغربال يا بيروت أعمى بعيون أمريكية ، وبالطيارات أول غارة يا بيروت، غارة برية وبحرية، وجبل الشمال وبالبحر يا بيروت صور الحرة والرشيدية ، قلعة شقيف التي بتشهد يا بيروت على راسو راس الحية، الشجر قاتل، والحجر يا بيروت، والواحد جابه دورية ، جمل المحامل شعبنا يا بيروت، بعين الحلوة واحنا ردينا الآلية يا بيروت، بحجارة صيدا ،
- قراب الدامور اللي بيشهد يا بيروت عالخسارة الصهيونية ، سدوا المنافد علينا في بيروت، وحرقوا المعونة الطبية، سور الأشبال مع زهرات يا بيروت منو ما مرت آلية،
- وبالطيارات غطوا السما يا بيروت والبحر جبهة حربية ، حنا اتحدنيا المنية ، واشهد يا عالم علينا وعبيروت وعصيدا وشاتيلا وبرج راجل يا بيروت بالمتحف شافوا المنية ،
- ولما طلعنا ودعناكِ يا بيروت ، وسلاحنا شارة حرية لا راية بيضا رفعنا يا بيروت ولا طعلنا بهامة محنية ،

آهٍ يا بيروت يا جرحاً بعيد الفوت.

يا نزفاً في جبين الكبرياء.

سدوا آذانهم عن صوت النداء.

بيروت فاتحة العواصم.

بيروت آخر كلمة في الحلم تنطقها العزائم.

فإذا مضت بيروت نحو البحر .

فالطوفان قادم.

فرقة العاشقين.

كل من بكى فلسطين سلمناه مفاتيح القدس

وفي الليل أغلق اليهود عليهم أبوابها وناموا

وقضينا نحن الليل في عراء المفاتيح

كان من الطبيعي إذن أن نقف على عتبات التاريخ كالأيتام

لقد خسرنا معركة الجغرافيا بفداحة.

أدهم الشرقاوي

في واقع الأمر كانت بيروت مقراً للعمليات الفدائية، ومركزاً للحروب بين منظمة التحرير والعدو الاسرائيلي، مزبلة التاريخ لن تحتوي قتلا، اليهود هم أقذر من ذلك بكثير. صمدوا جميعاً لمدة ثمانين يوم، كانت فلسطين أغلى من الطعام والشراب ومن الدماء المنهمرة من قلوبهم، استطاعت منظمة التحرير بقيادة ياسر عرفات أن تقدم تضحيات مشرفة وانتصارات، فصمدت وقاتلت بالسلاح، لتكون بيروت رمزاً للنصر حينها، حيث خرجوا بأسلحتهم بعد أن مزقوا اللون الأبيض وجعلوه مداساً.

كانت الحرب ولمدة ثمانية أشهر تصب جحيمها وكأن النار الذي أشعل البارود أتوا به من جهنم كان فجر بيروت طويلاً، طويلاً جداً، كانت سحب تلك الأيام ملطخة بالدماء.

استشهد المئات من الشباب المختلفي الجنسيات، المتحدين في فهم أصل الوجود، فهم أيقنوا أن سبب بعثنا كان لأننا قضية، انسحب ياسر عرفات الشهيد البطل مع من تبقى إلى تونس، فارتكب الصهاينة مجزرتي صبرا وشاتيلا وقانا، وما زال يهتك.

ذخائرهم، وقود الوطن، ذاكرتهم الجائعة عيونهم الثائرة، بيروت، ياسر عرفات، القضية، الشتات، ما الذي تنتظره من شعب نشيده الوطني فدائي.

كان ياسر عرفات يرى أن لغة الدم مع المستعمر ورقة رابحة مهما لعبت بها رياح الخيانة.

انسحاب ياسر عرفات من بيروت لم يكن بخيانة، بل عدم استشهادنا حينها في سبيل فلسطين هو الخيانة بحد ذاته.

ياسر عرفات استطاع أن يرسم في ذاكرة كل البشر شمساً للمقاومة، وثورة للبلاد أشرقت منه، وحب يستحق أن يدوم. قال إن الصهاينة زائلون، وإن مأجورهم

راحل، كان عرفات يطلق رصاصه ليحيي السلام، أين كان العرب؟ أين كان من يهاجم ياسر عرفات اليوم بتهمة الخيانة وبيع الوطن؟

انسحاب عرفات لتونس وتوقيعه أوسلو خيانة، وشربهم خمرهم ونبيذهم وممارسة عهرهم في قصورهم هو الانتصار!

أين كانت كل البلدان؟ أين هي الأغاني التي لُقنا إياها، بلاد العرب أوطاني وكل العرب إخواني؟

كل العرب خواني، فلسطين بيعت ولم تحتل، فلسطين خيانة نهشتها كلاب المقبرة فأفنت روحها، وأبقتها بلا غصن، حاول الفلسطينيون استرجاع أرضهم، فكانت نكبتهم الأولى بالخذلان، وتجسدت الثانية بالانتظار.

فلسطين التي أنجبت من رحمها ياسر عرفات لم تكن يوماً خائبة، كما هي اليوم.

قال الصهيوني إسحق رابين مخاطباً ياسر عرفات: كنا نخطط ليوم تصعد فيه إلى الطائرة، وتظل تحلق فوق الوطن العربي ولا تسمح لك أي دولة بالهبوط في مطارها وكنت أرى ذلك اليوم قريباً.

أوشكت تونس أن توقف دعمها لياسر عرفات تلك السنة.

قدمت المنظمة تضحيات مشرفة، وانتصارات عظيمة فخرجت رافعة السلاح شامخة الرأس. غولدامئير وهي الإسرائيلية الصهيونية التي قادت الحروب واستطاعت احتلال سيناء ومرتفعات الجولان والقنيطرة، ذات السبعين عام جاءت هزيمتنا على يدها!

غمست يديها بماء استحقارنا قبل أن تغسل بها دماءنا! عندما قاموا باحتلال فلسطين، قالت لا وجود للشعب الفلسطيني بعد اليوم.

الشعب الأول عاش، الشعب الثاني يتذكر، الشعب الثالث ينسى.

وكانت تقصد تتالي العصور وتتابع السنوات، لكنها تفاجأت بما يمكله الشعب الفلسطيني في الشتات، من إرادة وعزيمة راسخة لحق العودة، هو ورقة لا غير، وتذكرة انتساب الأرض مقدسة، لكن هي هوية، لكنها وإن غابت وغدت صعبة المنال، حق، والحق ما كان يوماً ميتاً.

لاجئ من ديار العذرية أنا، ثائر في عالم الخونة أنا، أنا صوت شعب كسر دوامة الليل بمقلتيه، وأعمى السجان من كوفيته المقدسة، أنا الذي تماريت في قبة الأقصى، وزرت السماء، وحُشرت مع الأنبياء لنبأ استشهادي!

أنا الطفل الباكي بعد المجزرة، أنا المنقذ الذي اختزل سواد التاريخ وحلق فنشر المذبحة، أنا الطائر الذي سبح لله ووحده، أنا الرصاصة التي فجرت ثورة، أنا المقتول ألف ألف ألف مرة، واسع العيون، طويل القامة، عريض المنكبين، ذو قلب صلب وملامح شرسة، أنا الفدائي المتسلح بالثورة، أنا ريح الوطن الباكي على أطلال المأتمة، أنا اللاجئ والنازح والمتشرد والمتمرد وأنا سواد عين المقبرة، بعيد كل البعد عن وضعي الذاتي فأنا لست إنسياً بل أنا، من رحم الوطن اغتصبوني، فلسطيني مذ وضعت الحبر على دمي، فلسطين قد هبت الأعاصير وثرت، منذ قتلت وصفي التل، مذ قطعت أوثانه، ودمرت دماءه العفنة كان أكثر خبثاً من اليهود أنفسهم، قطع أصابع الرضع الفلسطيني كي لا يحملو السلاح عندما يكبرون، حملت منه قمامة رمت بها لمزبلة التاريخ، دفنته لجانب ماوتسبيسونغ، ماوتسيسونغ الذي فجر الثورة الشيوعية في اليابان، جاء أحد جنوده مهرولاً يقول له: لقد احتل اليهود فلسطين سيدي! سألهم وكم عدد اليهود؟ أجابوه: سيدي مليونين. فضحك ملياً وقال لو خرج الفلسطينيون على الشواطئ وحمل كل واحد منهم كأس ماء لأغرقوا اليهود. إنهم شعب يستحق أن يُحرق! وضحك حتى دنس العالم بضحكاته، وأي منطق يخلو من

المنطق ذاك الذي يتحدث عنه لودخل الصهاينة فلسطين المقدسة يزفون الورود؟ ألم يدخلوها بدباباتهم ومجنزراتهم، ألم يشقوا ستار الحق بظلمهم؟ أولم يتكالب العالم أجمع على تسليم فلسطين هدية ثمينة لأحباء صهيون؟

وماذا يقول من عاد إلى حيفا فوجد اليهودية من دمه، فقال إن الوطن ألا يحدث كل ما حدث وأين غاب عنهم الوطن؟

عندما زار الفسطيني دمه المتهود جسد كنفاني عمق القضية في روايته:

- ***لاشيء لا شيء أبداً كنت أتساءل فقط أفتش عن فلسطين الحقيقية التي هي أكثر من ذاكرة، أكثر من ريشة طاووس أكثر من ولد أكثر من خرابيش قلم رصاص على جدار السلم، وكنت أقول لنفسي ما هي فلسطين بالنسبة لخالد؟! إنه لا يعرف المزهرية، ولا الصورة، ولا السلم،ولا خلدون، ومع ذلك فهي بالنسبة له جديرة بأن يحمل المرء السلاح ويموت في سبيلها. وبالنسبة لنا أنا وأنت مجرد التفتيش عن شيء تحت غبار الذاكرة وانظري ماذا وجدنا تحت الغبار؟! غباراً جديداً لقد أخطأنا حين اعتبرنا أن الوطن هو الماضي فقط، أما خالد فالوطن عنده هو المستقبل. وهكذا كان الافتراق وهكذا أراد خالد أن يحمل السلاح عشرات الألوف، قبل خالد، لا تتوقفهم الدموع المغلولة لرجال يبحثون في أغوار هزائمهم، عن حطام الدروع، وتلك***

الزهور وهم، إنما ينظرون إلى المستقبل، ولذلك هم يصححون أخطاءنا وأخطاء العالم كله، إن دوف هو عارنا ولكن خالد هو شرفنا الباقي، ألم أقل لك منذ البدء أنه يتوجب علينا ألا تأتي إلى هنا وإن ذلك يحتاج إلى حرب،

- لقد عرف خالد ذلك قبلنا،

ووقف فجأة ووقفت صفية إلى جانبه وهي تفرك منديلها محتارة وظل جالساً متّكئاً على نفسه، وكانت قبعته متكئة أيضاً إلى المزهرية، ولسبب ما مضحكة كانت تبدو، فقالت: لا تستطيعون أن تغادروا، لم تتكلم كفاية في الموضوع!!

قال سعيد: ليس ثمة ما يقال بالنسبة لكِ، ربما كان الأمر كله حدثاً سيء الحظ ولكن التاريخ ليس كذلك، نحن حين جئنا هنا كنا نعاكسه، وكذلك أعترف لك حين تركنا حيفا، إلا أن ذلك كله شيء مؤقت أتعرفين يا سيدتي؟ يبدو لي أن كل فلسطيني سيدفع ثمناً، أعرف الكثيرين دفعوا أبناءهم وأعرف الآن أنني أنا الآخر دفعت ابناً بصورة غريبة ولكني دفعته ثمناً، ذلك كان حصتي الأولى وهذا شيء يصعب شرحه.

واستدار دوف لا يزل في مقعده محتوياً رأسه بين راحتيه،

حين وصل سعيد إلى الباب وقال:

تستطيعان البقاء مؤقتاً في بيتنا، فذلك شيء تحتاج تسويته إلى حرب،

وبدأ ينزل السلم محدقاً بكل الأشياء، وقد بدت له أكثر أهمية مما كانت قبل ساعات وغير قادرة على إثارة أيما شيء في أعماقه. ووراءه كان يسمع أصوات خطى زوجته صفية أكثر وثوقاً من قبل. وكان الطريق في الخارج خالياً تقريباً. اتجه إلى سيارته وتركها تنزلق على السفح دونما صوت، وعند المنعطف فقط أدار محركها واتجه نحو شارع الملك فيصل.

وقد ظل صامتاً طوال الطريق، ولم يتلفظ بما يشاء، إلا حين وصل مشارف رام الله عندها فقط نظر إلى زوجته وقال:

- أرجو أن يكون خالد قد ذهب أثناء غيابنا.

غسان كنفاني "عائد إلى حيفا".

على ضفاف القضية الفلسطينية يرسم بروايته عذاب ما مضى، ويحك جرح أبي خالد في الصميم فيبعثر الثورة في كل أمواج حيفا، تهيج أشعة الشمس، ظل الأمواج، فتبين بعض الشيء خيانة القضية التي تجرعتها كتب التاريخ حسرة ونبذتها الأمجاد مرارة.

فلسطين كانت لكنفاني الثورة.

وكانت لصفية الماضي.

وكانت لخالد حلمه أو ربما ضرحه الغائب، أرضه المغتصبة.

وكانت لدوف وعد الآلهة.

وتمثلت للعرب بالخيانة .

كنفاني أضعف من أن يقول أن خالداً قد روى بدمه جرح أمه الثكلاء، فختم المشهد المجهول بقول أبي خالد الذي لطالما كان يفضل أبوته على السماح لولده بالالتحاق بالفدائيين، بعد أن رأى من يهودية ابنه المنسي ما رأى، دفع بروحه إلى عمق القضية وتمتم بعد زيارة مأساوية لفت معاناة وطن، أتمنى أن يكون خالد في غيابنا قد ذهب وكان كنفاني بكى حين خط ما خط، فاستعاد قواه مرة أخرى وكفكف عن أوراقه دموعه، وكأن صراع دار بين الكاتب والرواية، وبين فلسطين وحيفا، وبين حيفا والبحر، وبين البحر والموانئ، وبين الموانئ والأمواج، الأمواج التي ما أغرقت اليهود وهي تقلهم لأراضي حيفا، تخيلت كنفاني يعارك نفسه، وهو يبتلع المشهد ويخيط من جهده كوفية وضعها على ناي أنينه، فعزف بقوة: "يا دمه النازف إن كنت عذاباً يومياً لا تصغر، يا دمه، يا دمه، يا دمه"

فختم دون أن يقول بلسان الأب أتمنى لو أنني أعود للمخيم فيصلني نبأ استشهاد خالد فأكفكف غبار الماضي بدموع نصري، وأسهر الليل سواسية مع بندقية ولدي بشهادته أحتفل.

من كل الأطراف، تتسل أخبار لا تبشر بالخير،المجموعات الإرهابية تدخل المخيم، تحتمي بستار الإسلام، أيعقل أن يصلي المرء للخطيئة؟

كيف يقولون لا إله إلا الله، وهم يعبدون عدداً من الآلهة، إله الذات، وآخر للقتل، وثالث للفتاوى التي تستبيح الإنسان باسم الإسلام. وأي صلح وسلام مع روح الله ذاك؟

التنظيمات الإرهابية المسلحة، تدمر العقول، الأديان، المباني، الحواف والزواريب، قيل يوماً إن محمداً صلى الله عليه وسلم جاء ليتم مكارم الأخلاق، ليرفع علم الحق لا الظلم، محمد الذي رجم في الطائف، حتى ملأ دمه المكان، محمد الذي قال أن الرسالة حب وإيمان، واحتساب أيعقل أن يكون هؤلاء حمالها؟

مخيم نهر البارد يشهد توتراً عنيفاً، الدبابات تحاصره، الكهرباء تخونه فتنقطع دون توان، الماء يهجره، وصوت القصف يهز هدوء الليل بصخبه، تتلون السماء بالأحمر، وتترمد الغيوم بالأخضر، وتلحق الأرض بالأسود، تتمرد الأشجار بالأبيض، لترسم الطبيعة في أرجاء الكون علم فلسطين بألوان الحياة، إذاً هي معاناة شعب الشتات تعود لتسلب الساحة مرة أخرى، شهيدة، مجزرة، صخب، ذبح، مخيم، أخبار متسارعة، شفاه تتكمم، وعلى نشرات الأخبار يتألم المشهد، لاجئ لا صدر يحضن عينك المغرورقة بالدموع، صيحاتك لا تزال ترن في الفضائيات وأخبار عن مجزرة ارتكبت بمخيم نهر البارد أثناء الاقتحام، ثم تهديم المخيم عندما اجتاحته القوات اللبنانية لتطهيره من دنس التكفيريين.

سمعت مرة من أحدهم أن الحرب لا تفرق بين الورد والشوك الذي فيه، وإن العلماء على الرغم من إثبات وجودهم بقوة، يموتون في نهاية المطاف، وإن الأنبياء أيضاً يرحلون. أيعقل لبيروت أن تطلق نيرانها فتقتل فلسطين!

أم أن من حملوا رسالة الأمّي محمد عليه الصلاة والسلام ما كانوا يفقهون عنه غير الغزوات التي خاضها؟ محمد الذي توفي في أحضان عائشة، ألم يستفز هذا عواطفهم؟

محمد ملك العاطفة، صاحب الإسراء والمعراج، محمد سيد الكونين والثقلين والفريقين من عرب ومن عجم، هم ليسوا حُمّال رسالته.

هم عصابات إرهابية أنشأتها الولايات المتحدة التي تنادي بحقوق الإنسان، والتي هي بالمقابل مرتع الجريمة والاحتقار، أمريكا التي لا تمتلك تاريخاً حتى كدولة دخيلة فرضت سيطرتها بعد أن تدخلت في الحرب العالمية الثانية، لصالح فرنسا فغلبت هتلر، أمريكا تدخلت بعد ثمان سنوات من اندلاع الحرب العالمية الثانية فقلبت الموازين لأنها دخلت أصلاً فوق كومة ركام، استطاعت أمريكا فقط حمل الركام الذي تريد والنفخ عليه، لتحمل بعدها أبواق العالم وتنفخ به، أنا الدولة الأقوى، إسرائيل والتي تعتبر شقيقة أمريكا في كل شيء بل أمريكا كالكلب المدلل.

افتعلت أمريكا التنظيمات الارهابية لنشر الصورة المسيئة للإسلام، فأنشأتها ونمتها ورعت تمويلها وثم بعد ذلك أطلقت الصرخات الخائفة منها، المناشدة بالابتعاد عنها وقتلها،غريب هو عهر أمريكا، كيف تناقض نفسها هكذا دولة حديثة العهد ظهرت فجأة، وستنتهي فجأة، في الحين الذي يستقبل العالم أنباء المخيم، يمشي الناس قوافلاً للجنة، حيث الشهداء،يتدافع الناس عند نقطة الوداع، للبكاء كثيراً، هي تماثيل من سبقوهم تمر أمامهم، وعيون من تركوا، تؤلمهم، إنها الورود ذرفت الندى،

والمساجد في غير أوقات الآذان كبرت، الكنائس دون أن يتذكر صلب المسيح قرعت، وحائط المبكى، قد نحب ولطم وبكى فأغمي عليه.

هي الحياة اليوم ترسل للتاريخ حدثاً مثيراً لن تتوانى المحطات العربية في شجاعتها عن نقل أخبار الموت دون أن تتدخل في توقفه.

السطور تتبدد كلماجاءت الكلمات، والوحي يهرول مسرعاً إلى خلف الستارة بحثاً عن بلاد أخرى، عن وطن آخر، عن منفى فلسطيني آخر سمعت صوت البكاء من أعالي السماء خيّل لي أنه من السماء السابعة فوق وجوه رأيتها تطل من نوافذ غريبة دموع تتساقط خلف الزجاج جملة أعادوا تكرارها جميعاً، لقد هدم مخيم نهر البارد.

وكأن فلسطين قد كانت السماء السابعة التي حضنت دموعهم، أمهم كانت أقوى منهم، أيعقل أن الخيام قد اقتلعت؟

وأن الدماء اختلطت بحشائش الأرض، وأن لبنان استطاعت أن تكسب حدثاً آخر في تاريخ السجل الفلسطيني الذي طالما تلطخ بالدماء!

كيف صبت الدبابات جحيمها بهذا الشكل يتوجب علي أن ألبس وجهاً آخر أخفي به دموعي التي سقت ورود قبورهم الجماعية، مخيم نهر البارد، يتيم، تائه، ملطخ بالدماء، مهشم، فلسطين تتألم، كانت حرارة الشتاء تشتد، يوماً بعد يوم، كما هو الحال في مخيم اندلعت به الحرائق، من ترك المخيم قد نجا، ومن ظلّ انسحب إلى السماء على شكل أشباح بريّة أصبحت الحياة تبدو، "أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله".

كانت آخر كلمة سمعتها من جارتنا أم جهاد، أنا الطفلة التي كبرت في المنفى، والتي شهدت المجزرة، سمعت صوت الدبابات تقصف فأسرعنا إلى الطابق الأرضي

حيث المكان أكثر أماناً، كل عائلتي كانت معي، كانت الغرفة تضج بأنفاسهم، عيون خائفة تجوب أرجاء المكان، أناس يصرخون خارجاً، مجابهات بين الإرهابيين والجيش اللبناني، فوهة الدبابة تطرق بابنا، الجميع تتحول أنفاسهم لهدوء، ثم لنزف، فدماء، فموت جماعي، وأبقى أنا حية، أتنفس دماءهم، ونزفهم، ونزعهم، وتأتي الروعة أن أموت يومياً، كل يوم بشكل جسد أحدهم، وبذكريات آخر، ولكأن الموت عشقني، فأصبحت يومياً أتمشى معه، كيف عنوة أحبته تلك الجارة، كانت أليسار صديقتي أرسلت ولديها لدار أختها في حمص خوفاً مما قد يحدث، كيف يمكن للإنسان أن يموت لأجل من يحب؟ في الواقع إنه أمر منطقي لكن الأجدر تساؤلي، كيف يمكن للإنسان أن يموت إزاء شيء كان لطالما يكرهه؟

ويقضي حياته بالهتاف ضده، الصراخ عليه، قضية وطن كلمة لا تفك أسر أفكاري المعلقة بخصوص تلك الجارة، "كلماتها" بعد أن رحلت لسورية، ورعتني عائلة سورية ثرية، كنت لا أزال أفقدني، لم أرغب كعادة البشر بأن أنسى ما عشت من ألم!

أردت فقط الانتقام، لم أكن أدري أنني كنت من أرض دمشق الفواحة بالياسمين، أم من أرض بيروت الثائرة؟ ولم أكن أعلم إن كانت قصيدة درويش: فجر بيروت الطويل، حقيقة. ولكن ما أعلمه أني كنت مثله لا أدري إن كنت حية أم قتيلة؟

أمل– دمشق

ما الأرحم؟ ما يتركه لك الموتى حين يرحلون؟

أم ما يتركه الحب بعد رحيل الأحياء؟

كيف نستطيع قتل الحب مرة واحدة دفعة واحدة وهو ليس بينك وبين شخص واحد أنه بينك وبين كل الأشياء التي لها علاقة به.

أحلام مستغانمي

حمص

أليسار

هذا الطفل الذي يأبى أن يكبر، داخلي أمشط شعره كل ليلة، أسرد له بعض الحكايات، أواسي سره وأجلب له عصفوراً يوم عيد ميلاده، كان اليوم عيد ميلادي الرابع والعشرين، وهذه أسوأ سنة تمر علي، أفتقد عيونه، بسمته، ملامحه، نغمة صوته، جنونه الذي كان يدفعني للحياة، لقد استشهد جهاد، أخي، رحل، خبأت كوفية كان يحتفظ بها ولبستها، لم علي أن أبكي أسرتي كلها؟ أيجب أن تكون الدموع منهالة دائماً من عيوني؟ كأنه يلزمني إيمانٌ أكثر لأصبر على فقد روحي؟

تتملكني رغبة كبيرة في البكاء والأنين، لم ليس بجانبي في يومي هذا، لماذا لا يعاني، حتى أنه لم يترك لي وداعاً أخيراً، أبكيه اليوم بلا وداع، لكن لا أستطيع أن أبكيه بلا صراخ، مذ كنت صغيرة كنت أستمع للحكايات الخيالية، سرد الأحلام في القصص، لم أكن أفهم، كان حلم أخي من صغره، الموت، سألته ذات يوم، ما هو حلمك؟

فأجاب: أن أستشهد لأجل وطني.

تغيب كثيراً من الأحداث في مخيلتي، لكن ذاك الحلم طالما كان يقلقني، كان يقتلني، أكثر من وحدتي، كنت كلما سألته، وكيف ستصل بلدك، يجيب: الحب يصنع المستحيلات. أيعقل أنه أحب مستحيلاً، فوصل!

تلك الدمى، ذكريات طفولتنا، يتمنا المشترك، بعيدٌ هو عني، تقول لي خالتي أنه يستمع لي حتى وإن كان ميتاً، شقيقي، علمني كيف يكون الحب، الوله، وكيف تبكي الأوطان على فقدها، بشهادته نفتخر. لم أكن أدري قط، إن كانت دموعي حزناً أم فرحاً؟

كان دائماً يقول إن المخيم مات ولكنه لم يمت بموته، غريب كان برمزيته، غامض الملامح بنقائه وماذا أقول له؟ ذابت كلماتي على بابك أيها الراحل، أنت الذي اختزلت الثورات في عيونك وفجرتها في ثانية، فضج الكون بصخبها، نسيت نفسي حين رحيلك ولكني لم أنسك، أفتقد قبلتك قبل نومي، كنت دائماً تخفف شعوري بيتمي، دموعي، كنت تمسحها، أي يد تمسح عن حياتي يتمها الآن.

أخي الراحل بعيداً مع نسور الثورة، أشهد أني أحبك كثيراً أوسع من السماء وأني أفتقدك أكثر مما أحبك، كنت أرى أن كل من يرحل خائن، إلا رحيلك، تمثل لي، بالطهر.

شقيقي، كم كنت فخورة بك عندما تخرجت من كلية العلوم السياسية، كنت بمثل عمري اليوم.

أعدك بأن أتخرج من وجع فقدك، وأن أدخل الدراسات العليا للسير على دربك، أتذكر عندما قلت قبل أن ترحل فجأة مغلقاً دولاب الأيام من بعدك، سألتك: ما هي الحياة بالنسبة لك؟ فأجبت: أجيبي أنتِ ما هي الحياة؟

فقلت لك: الحياة وجهات نظر، قد تحصل فتكون صحيحة وقد تنتهي فتكون خاطئة. فضحكت كثيراً، وقلت أحياتك مجرد رأي؟

فسألتك: الدور عليك.

قلت: في بداية الأمر عندما يولد الإنسان يكون قضية، وعندما يموت يكون قضية، وما بين ولادته ومماته يجب أن يحيا لقضية وبقضية، الحياة قرار، وليست وجهة نظر، قرار بأن تكوني قضية.

لم أزل أبكي على أطلالك، لكن دون أن أسمح لهم بأن يعلقوا قصائدي على ستار الكعبة فإني أخشى نحيبي عليك، وهلوستي بك، وجنوني مثلك، أو يشبهك دون

أن تدري فأنت كعادة الراحلين، لا تستطيع نطق الحروف فقط تحرك المشاعر،أخاف أن أكون قاطنة في حق ربي أأصبر على فقدك؟ وقد كنت أنت الصبر الذي سلبه مني، فراقك.

أبكيك يا عمري، والعمر يختلج على أهدابك، والنور اسوّد عند لحيتك، والتجلي يكبر لعظمتك، ما حبي لوطني المنتصب لم أعد أتمنى للحب، أصبح الحب أنت، والقلوب مشاعرك، والغضب ثورتك، أنت الحي ما دامت القضية حية، المتنفس في أرجاء الاختناق، أنت الراحل، الأسد، أنت فخري، تفاخري، افتخاري، أنت أخي، أخي أنا، أيعقل أن أكون بفقدك قد فقدت صوتي، فاختلج!

لا أقدر على الغناء، تتمزق حبالي الصوتية، يلزمني عمرٌ آخر لأصدق موتك، عيون أخرى تساند عيوني فتبكي الوطن معك، فإني والله مذ فقدتك عاودت اليتم، أأبكي فرحاً بشهادتك، أم حزناً على غيابك؟ أنت السلام والثورة، وأنا هنا الباكي في المنفى، أترى اليتم الذي جمعنا كم كان جميلاً لأنه جمعني معك!

إني أرى بك عرس الوطن، كيف تزوجت القدس دون أن تخبرني، ألعلها ارتدت الطرحة البيضاء وهمت لك على عجل، أم أنها مثلي عندما بحثت عنك قالوا لها بأن استشهد البطل، أسد في الروابي قد زأر، صال وجال يغرس الورود من بين أنيابه، ثم بعد أن أكمل غرسها، تبعت روحاً فحضرت الملائكة بمرح إلى جنان الفردوس، هيا لنذهب، ولكان طيور السلام جميعها من فلسطين لدمشق، قد حضرت جنازتك فشيعتك وغنت لك، ثم عانقت بعضها بعضاً، بخضم الدموع كانت ملامحهم تُرسم، وكأن وجهك جمع التاريخ والجغرافيا معاً، وكأن جلّ التضاريس في ملامحك تكتمل.

رأيت بك بيت المقدس والتوحيد وياسمين الشام وأنين بغداد، وكأن الملائكة سارعت فحملت بسمتك إلى الأعالي على عجل، قبل أن يمسكوا بيدك لتصعد كانت روحك لجنان الخلد ترتقب.

عَظَمَتُكَ ما زالت حتى اليوم. يدعو اليتامى لك أنْ ربّنا تقبلْه في عليين مع الأنبياء والشهداء والصالحين. وكأني بفقدك فقدت فلسطين مرة أخرى، وكأنني بكيت المخيم مرة أخرى من كل دمعة سقطت لك،وكأنه برحيلك قد رحل الى الأبد.

وإني رأيت الحوريات تدافعن من فوق سبع سماوات ينتظرنك ليحظين بك، وكأنك أنت السلام، ومنك أتت العصافير بالتغريد للثورة، للأمل، وكأن الورود منك اجتبت رحيقها، وكأنك من سرقت من الملائكة والقمر ضوءهما، فأصبحت النور الذي يملأ العالم نوراً، أو لعلك من تعلم منك الأطفال البراءة والحب والنقاء والبسمة والأمل، ستذكرك فلسطين، الثورة، القضية، الموت في سبيل الإيمان، تسبيح القصائد، سيذكرك الكون أيها البطل الراحل، يوم سافرت بغرض بعثة دراسية، فسمحت لك منظمة التحرير بالدخول لأراضي فلسطين كونك كاتب فكان يجب أن تحيي يوم الأرض، لم أدر أنك ستموت لتحيي الأرض، ستفقدك الأرض، سافرت يومها بخوفٍ رهيب، لكن بطمأنينة أيضاً، كيف لشابة مثلي أن تكون بهذا القدر العالي من انفصام الشخصية؟

لم أدر أنك رتبت مع شبان في الداخل عملية انتحارية في الجليل الأعلى، كنت المقدسات جميعها، حيثما قلت لي يوماً، إن الوطن إن كنت في الشتات قد يحتاج لأوراق وحبر، ولكن إذا اجتزت حدوده، أصبح عليك أن تنزفي له، دماً، كنت صغيرة فلم أفهمك، أو بالأحرى، قررت أن لا أفهمك، خشيت أن يكون فهمي لرغبتك بالشهادة حقيقياً، كنت نائمة عندما رحلت روحك من هذه الأرض أتراها صعدت للسماء بوجع، لأنها أشلاء أم أن أصناف الملائكة لمت شمل جسدك وصعدت للجنة قطعة واحدة، وإن صعدت جثة واحدة.

أشهد الله ورسله وملائكته وخلقه أنك لم تمت إلا في سبيل الله ونصرة لقضيتك،

آخر كلمة قلتها لي، أذكرها جيداً: لا تنسي أنك بُعثتِ بغرض السلام، السلام الذي يحتاج تحقيقه إلى حرب، إن لم تستطيعي أن تصلي وطنك، فدعي صوتك يصله. كنت دائماً أستمع لكلامك على أنه المنطق الذي يتمثل بلا وعي.

لا تموتي من أجل القضية، بل احيي من أجل القضية. كلماتك تخدش لبي، دائماً ما تجعلني أشعر بالحياة والموت معاً، أصبحت أحضن أوراقك، ابتسم بها عبقك، دائماً ما أراك فيها، أخي لو تدري كم أحتاجك، أحتاج على سبيل إرادة الحياة أن أكسر حزني بسببك، أأغفر لك فراقك عني دون أن تقبلني؟

دائماً ما تقول لي صديقتي أمل إن الحياة قوة، وإني إذا استمررت بالانهزام لوجعي هكذا، ستكون حياتي مجرد أحداث حزينة أكررها يومياً.

غريبة هي هذه الفتاة، قوية، ورقيقة، أشعر أنها تفتقدك أكثر بسبب كتابتكما المشتركة.

إن كنت أنت القضية، كما كنت أراك لمَ يجب أن أحيا بعد موتك، سألتها فأجابت: إن الحياة لا تتوقف بموت أحد.

فقد قُصف مخيم نهر البارد وهُدّمَ تماماً ولم أزل حية، كنت قد شهدت المجزرة وانتشلوني من تحت الأنقاض، ولكن لم أفكر يوماً في السبب الذي لم يرديني قتيلة، فكرت في أني أستحق الحياة، وأني يجب أن أحيا، لأني على قدر من القوة تجعلني أحيا، أنا التي طالما أحسست أن أناس أهلي، المصطنعين، الأموال، تعجز أن تصنع لي فرحاً.

أليسار، أكتب إليك رسائلي والدمع يخترق وجناتي البيضاء، لست بلا مشاعر، أنا مثلك أحب، أكره، أحزن، أغضب، جربت كل المشاعر لكن القوة، كانت الكلمة

صاحبة السطوة لقواميسي ، من بين سطوري، ثم انتهت كلماتها اللاذعة لتحيي بي مجددا حزني.

اليسار

أمل

دمشق

أحتاج الآن على وجه الخصوص أن أخلع وجهي القوي وألبس وجهاً آخر، وجهاً يجعلني أغرق بالدموع، ليأخذ أحدهم حنجرتي فيصرخ بها، سئمت القوة، سئمت القيود، أنا هنا في أحضان دمشق أتقاسم ذبول ياسمينها ووأد عصافيرها، وبكاء أموييها، دمار حميدتها، وهلاك ما تبقى من مطافئ الحريق.

آهٍ أليسار، أرسل إليك رسائلي وخناجر الوجع تكتسح قلبي، لكن لا يمكنني أن أزيد ضعفك كسراً فنتكسر معاً، لأول مرة في حياتي لا أرغب الكتابة، الكتابة جموع، تمرد، ثورة، فكر، عاطفة، كفر، خيانة، كما قال جهاد: الكتابة تخلق الحضارة، ماذا أفعل إن كان ضجيج أفكاري أعلى من أن تستوعبه سطور؟ أشعر أني أختنق بحروفي.

في دمشق كل شيء مختلف، حتى الحزن، يبدو أكثر جمالاً.

أليسار، أحتاج أن أضمك فأشم رائحته بكِ أحتاج أن أعانقك، فأتخيل وجهه وهو مبتسم، أن أغرس بعض الورود التي أهداني إياها على قبره، أو مثلاً، أن يكون دفن بالكوفية (السلك) الذي أهديته، تخيلي، دفن قطعة مني معه، لو كانت السماء تمتد أكثر من ذلك فتبتلع وجعي، في جوفها تخبأه!

ماذا لو أني كنت التراب الذي امتزج بأشلائه أو أشلاؤه التي تلاشت في المدى، يتغيب الظل داخلي، فتصبح كل الظلال ملامحك، آخر رسالة كانت منك: أشهد الذي سأموت في سبيله، أني ما أحببت شيئاً في هذا الكون أكثر من ذاك السلك الذي أهديته لي.

كان دائماً يقول لي أحبك بطريقة مختلفة هذه المرة، لم أجرؤ أن أفهم رمزيته،

كنت، أخشى أني أحبه.

من الصعب أن تحبي شخصاً عشق الموت، سيموت يوماً ويترك لك خوفك الوهمي واقعاً تتعلقين به، بوجهه الراحل وصوت يخنق أصوات المتكلمين.

المطاف الذي بدأت منه بدأ بخوف وانتهى بلا نهاية، نهاية مفتوحة كبعض القصص العالمية على رأسها، فلسطين.

أحب قريته، المسلك، الثورية والخوف، هذه المرة، أحبه، ولا لن أخشى، أدرك أنه علم أني لن أستطيع أن أدفنه فاختار أن يموت بدون جثة، بروح فقط. وما السبب الذي يدفع شاباً للموت في عز شبابه ومن دون جثة، سوى العشق.

أذكرك قلتها لي مرة واحدة، عندما فقدت عيني، همست لي أحبك، فشعرت أني استعدتها، ظننتك العين البديلة التي بعثها الله لي، فلما أعاد أخذها.

أنا عمياء تماماً اليوم، آهٍ يا ربي، خذ مني كل أعضائي وأعد لي هذه العين، فقد أحتاجه هو.

قوية كنت أبدو حينها، كنت سر قوتي وإرادتي، سر جنوني، سطوتي تحتلني، بنيت بي السدود وعصفتها، جلبت القلاع واقتحمتها، ثم عمرت النقوش اعتليتها، أأعجبك رونقها، لم أعلم عنك أنك تحب الزوال، فلم سكنتها؟

أكنت حقاً آخر صورة رأيتها كما حلمت بك؟ أحقاً كنت أنت الذي رأيت في الحلم؟

في الحقيقة كنت أراك وسيماً، لكن هذه المرة، كنت في حلمي مختلفاً، كان اسمرارك مختلفاً، وعيناك كانتا ترتلان نغماً صوتك كان رقيقا مثلك ثائراً كحقك.

أحادثك لأن قلمي قد تمرد على دمي، فما عاد لدي والله دمعة أذرفك، أنت الذي كنت دائماًبجانبي، قبل أن أطلبك، تقاسمت معي فرحي، وأنا الآن أنعاك دون

أن أرى مأتمك، أبكيك، أودعك، دون أن أرى وجهك، لمحة فقط أرجوك، قبل أن ترحل، لا تغلق الباب، لا تتركني للغياب، فأنا والله ما عاد في وسعي أن أسترجع الذكرى دون أن أحاول قتلك، عني إن قتلتك أنا أصبر، أصبر على عيني تأبى الا أن تبكيك، لكن خنجري يتعلق في قلبي حينما أفكر فيك، صدقني ضعيفة أنا، ما حال فتاة تحبها، تقتلك، تبكيك، تصنع، نفسها، ثم إلى حياة الأجداث تنزلق، أكتب لك الآن وأنا بين الاشجار الخالية من الأوراق، الخالية من كل شيء إلا منك.

ظلام يحيط بي مصدره نور شمس فقدك، وحيدة أنا بدونك، مثل هذا اليوم، قبل سنين كنت معي في نفس هذه البقعة التي لم تعد تتسع لك، أغلق يدك، فك ذراع الحصار، أخشى أن سفينتنا اهترئت في طوفان نوح،

كنت أبكي بكاءً شديداً لأنتزع عيني مني، أين ذاك الوجع من وجعي اليوم، إن استأصلوا لي عيني فقد كنت روحي، كنت قلبي، كنت الكلام والحنجرة المعجم، أي صبر ذاك الذي يقوني إلى التوقف عن استرسال مدامعي، عند ارتطام ذاكرتي بوجهك، سواد عيونك، أجفانك المكحلة، عرض منكيبك، شعرك الأسود،اسمرارك، قوتك، عاطفتك، نورك.

كان يوماً صعباً جداً، تكلل بوجودك بجانبي، شعوري كان خارقاً للوصف، جامحاً لحد الوجع، "الحمدلله الذي أخذ لي عضواً وترك لي أعضاء"، كانت جملتي الوحيدة، حملت معي جرحاً كعادة كل فلسطيني، عندما قصف بيتنا وقع حجر على عيني، فأدى إلى فقدها قدرتها على الرؤيا، كانت التحدي العظيم لي، كانت كتاباتي، وإرادتي، وأملي، جرحي وصبري، تصبري ونشوتي، كنت وبالرغم من وجعي منها، وبالرغم من أكثر من أربعين عملية جراحية خضعت لها، الأقوى، كنت معلمي في القوة.

عندما فقدت لأول مرة، قيل لي إني سأسترجعها، ابتسمت والدموع تملأ قلبي، والضحكات غطت ملامحي الحزينة، وأنا على علم بأنها لن تعود، لقد رحلت مع فلسطين، وستعود عندما تعود فلسطين، ستعود لي معك.

بعد مشوار مرض تجاوز العشرة أعوام، استطعت أن أدرس الأدب العربي، أن أكون قوية، كجبل، كجبل هز عندما مت، انحدر، صرخت ملياً عندما استيقظت من عملية الاستئصال، استئصال عيني، لأول مرة شعرت معنى أن تكون محاطاً بمن تحب، كان يحب أن أبكي كثيراً لأني بفقد عيني، وجدتك، وبفقد قلبي اليوم، لن أجدك.

يا ويح قلبي الباكي على ضفاف نهرك، كل دموع الأرض لو لمت شملها لن تخلق لي لوحة أرسمك، كسرت أصابعي، كما كسرت قلبي.

تدري، أنا اليوم أتعلم الدرس الأصعب منك، كيف أقوى على هجرك، وأنا الذي دفنت عيني، بقوة، وأنا الذي تحديت زماني بلا مبالاة، أن أعشق فلسطين المتمثلة بك، أي أن أعتاد الموت والتفاوت في المشاعر، ما بين الحنين والأنين وبين القوة والانهيار، الحلم والواقع، رقصي مع ظلالك، زحفي على كثبانك، اعتلاؤك منصة غيابك، شوارع الأقصى، حمضيات حيفا، قتال عرفات، اغتيال كنفاني، صمود اللاجئ، كل شيء بفلسطين يذكرني بك،

أذكر أني فقدت عائلتي ووطني وبقيت حية،

أذكر أني رأيت البستان الذي بعثنا فيه سوية قد دمر، ورغم هذا لا زلت أغرس الورود في كل بستانٍ أراه، لم أزل ألعب معك، وأذكر أني فقدت عيني ورحلت مع الملائكة في الجنان تجتمع، كنت قوية بما يكفي لأجمع لعيني إرادة تغنيني عنها، لم أزل أنا، الفتاة القوية التي سارعت تحتضن الحياة، دون أن تخاف مجهولها، أذكر أن الحياة جمعتنا مرة أخرى لغرض واحد، هو القضية، التي مت لأجلها والتي سألحقك،

ليس بسبب شوقي لك بل لأني أيضاً، سأصنع كوفية تملؤها الدماء أنثرها في أرجاء وطني، فتزهر روح عرفات لأقف معك، سواسية بالجهاد نرتقي.

أكتب لك الآن، وأنا ما أزال في يقيني نفسه، ولكن الأشياء من حولي تغيرت، أصبحت أكثر نصوعاً، قوتي تجعلني أرى الأشياء أقوى،الشجرة التي أقف تحتها عادت تشدني لأقف، والسنونو الذي يحمل على جناحه المكسور وطن داويت كسره، وأنا الباكي في محيط قصيدتي، أكتب لك، نثري الذي نثرته على قبر عيني، تراتيلي أصوات أنانية أنها لأنثى سواي، لم أكن أنا التي تقتلني، كانت عزفات العود، هي أوتار الزمان سبب محازني من ذاك الذي وهب لعيني ظلالها ثم اندثر، رأيت الشمس حارقة، رأيت الغيمة غاضبة، وكيف رأيت كل السنين في ساعة البكاء لم أكن أدرك ما أرى، كيف الآن أرى؟ وأنا ضريرة، لا أرى، ألم أكن أفهم ما يحصل، لم أسمع نبأ وفاتي يوم جنازتي نادوا علي بصوت خافت، لم أبصر إلا وروحي موؤودة، وقلبي يعتصره الألم.

ثم تجولت في ساحات أصواتهم، نحبك، كلٌ يقولها لي بنبرة مختلفة عن سواه، ولكهم يغصون بالدموع، وتحشرج صديقتي بألم على حالي، لا تختنقي، غداً النور قادم وكيف لاأختنق؟ أنا وهي تواسيني فتغص لتبكي، ومن يحبني ينسج لي قصيدة غزل يسرق لي من العمر كل أشعته، ومن السماء كل نجومها، نقطف من الأرض كل زهرها الأبيض، يضعها زينة في شلالات شعري الأسود فيمتلئ شعري نجوماً، وأشعة، ووروداً بيضاء، وقصيدة حب من عاشق أحمق، كانت حياتي مقطّعة سُرقت من بيتهوفن، لم يلحظ إلا قبل موته بثوان لأنه أعاد العزف فشرد بها، ولم يجدها فغضب، في الحقيقة كان شروده بداية قصة حياتي،وغزل الليل سواده في عجل، لحين صراع الشمس مع الأمل. كيف لها الحق بالكلام عنه وهي مصدر النور، ليس

فيها حياة، دبت المشاعر بنا فماتت وبقي ضوؤها، يغني لنا يا من أنرت نهاركم، اسرقوا من العمر عمراً قبل أن تسرق الحياة منكم كل لحظات العمر.

أمل

دمشق

تتكشف لنا حقيقة أحلامنا كلما اقتربنا منها عاماً بعد عام

نرهن حياتنا في سبيل تحقيقها

تمضي السنون

نكبر وتبقى أحلامنا في سنها الصغيرة

ندركها نحققها

وإذا بنا نكبرها بأعوام

أحلام صغيرة لا تستحق عناء انتظارنا طيلة تلك السنوات

سعود السنعي

اليسار

حمص

كل شيء متعب ، ابن خالتي تصرفاته تتغير معي، وما ذنبي أنا ليكرهني إن كانت خطيبته افتعلت الخيانة ظنّا منها أنه حقها، وتركته في مهب الحسرات معكتفا. أن تكون عاشقاً، تماماً كأن تكون لاجئاً، ستبحث عن نفسك في أي وطن، ولن تعلم في أي سبيل يتوجب عليك أن تحط حملك، سيكسر الوعد ظهرك الصلب، وستبقى لا تعلم عن جارحك شيئاً، سوى أنك تكرهه وتريده، أكثر مما تريد أن تبكي لغيابه، هو الحب كالرحيل تماماً في بقائه معك قلق من موعد رحيله، في رحيله خوف من عدم عودته، في كل الحالات أنت اللاجئ في الشتات المتوحد في منفاك، فارحل عن ملجئك واقصد وطناً آخر لعل قلوب من سكنوه، تغدو للجوئك أكثر رحمة، أتحدث أنا، على أمل أن يستمع، أنساها، خانتك، لا تستحقك، كل العبارات السيئة لا تبرد من ناره، كم مزعجٌ هو هذا الحال، أخشى كثيراً منه، إنه يتغير، يجلس دائماً وحيداً، ينظر إلي بحقد، وسمعت خالتي تقول أنها تقنعه بالذهاب لدكتور نفسي، لم أره قط بهذا القدر من الغضب، دائماً ما كان يحنو عليَّ. أحياناً أفكر في ترك الدار، والاستقرار لوحدي، لكن، كيف السكن وحدي وأنا فتاة، تأسرها مفاهيم شرقية، وعقول تدعي الشرف، وهي خاوية حتى من الأعصاب!

دائماً ما أراه محدقاً بي بشكلٍ مخيف، أشعر أنه يرغب في صفعي أحياناً، ذات مرة أراه يصرعني، ويصرخ بي، بقهر، ثم يبكي، يقول بخوف: "ليش خنتيني ، أنا ما ساويتلكشي، حرام عليكي تتركيني ، رح أدبحك، بس أطلع بوشك، عم أضعف، رح أنتقم منك، كيف بتنسي كل هالحب اللي كان أنت مو بشر، أنت مو حجر، أنتي ما تستاهلي تكوني حلم، أبكي ولك أبكي أنا بكرهك بس بعدني بحبك، أنتي ولا شي

وكل شي. أنا مجنون، مجنون فيكِ بجنون بسببك، مجنون لأني جنبك، مافيشي رح يطفي النار جواتي غير قتلك".

أذكر أنه عندما صرخ بكل ذلك احمرت عيناه وبكى حتى بلل تلك الغرفة، أذكر أني رأيت الأشياء حوله تغرق، وأن البناء كله اختنق وأن الحي يومها تحطم، تحول لرماد، كل تلك الأشياء شعرت أنها رأيتها وهي لم توجد حتى، أيعقل أني أصبحت أيضاً مجنونة مثله؟

القوة، كلمة أمل المشهورة، لم لا يفهمها الناس، لم لا يفهم الناس أن الحياة أعمق بكثير من أن تكون شخصاً يقيد حياتنا بزواله، وأين تكمن تلك العواطف التي تخرج مع أنفاسنا حيناً، ثم لم لا يمنعهم الخلائق أن الحياة مصيبة، وأن المصاعب أهداف، وأن البحر يحمل الزوارق وأن الأرض تكمل السماء، لم هو دائماً ما يبكي لأجلها، لم يجب أن نبكي على من جرحنا بقسوة، تلك العبارة التي تحوله كالمجنون الأبله، يقول دائماً أنا لا أستحق القسوة، لم آذيتني، لم أحمل لها يوماً سوى العصافير، سوى الورود حملت لها مرة قلبها كي لا ينهكها حبي، ولم أدر قط أنها لم تحمل لا قلباً ولا حبي، قاطعته يومها وسألت: وكيف لك أن تبكي، وأنت الرفيق على فتاة لم تحمل لك أي شيء في جوفها؟

أجابني: إنها كانت تؤنث كل شيء.

فقلت: وما الأنوثة التي سحرتك بها؟

فصمت، أذكر أن خضراء العيون تلك كانت فائقة الجمال شقراء الشعر، حمراء البشرة، طويلة القامة، فاتنة الصوت، خائنة المعالم.

الخيانة التي تراها حقاً، يراها سليم ظلماً، أراها أنا، انتقام الحياة وحقها في لعب دورها سليم المراوغ، الذي يحمل قلباً كبيراً يعبث به مع من شاء، تتيح ذاك من تربية

خالتي له فكان المدلل الوحيد في البيت، لعقم زوجها، عاطفة الأمومة فاقت حدها، فأصبحت تعطي كماً هائلاً من كل شيء حتى عواطفها.

حجم العطاء عندها هو حجم سخريتي من هذا الكون الغريب الذي يجعل البشر يتمردون دائماً على واقعهم بالكلام فقط، أما إرادة التغيير والتي حولت عمر ابن الخطاب من رجلٍ قاسٍ فظ إلى رجل يبكي من كلمة اتق الله يا، لا يحملها إلا القليل.

ومالي سواك وطن

وتذكرة للتراب رصاصة عشق بلون كفن

ولا شيء غيرك عندي

مشاريع حب . لعمر قصير

أحلام مستغانمي

زوج خالتي الجزائري الجنسية والذي شارك في القتال ضد المستعمر الفرنسي وكان ممن قادوا الثورات، أدت ثورته على المستعمر الى دفعه لاعتقاله وتعذيبه حتى أصبح عقيماً ، بعد أن أخلوا سبيله تحول من ثوري إلى ثوري أشد قسوة وجبروت فما حال دمه النازف بينه وبين الثورة.

صنع من قيودهم حرية لثورته، ومن ظلام زنزانتهم نوراً لوطنه، رمى نفسه في أحضان الموت، فما احتضنت الأرض ثائراً مثله حتى الأرض كفرت بموته، ثائر مثله يجب أن تبقى على رؤوس الأشهاد يتنفس الرصاص والبنادق التي تنفسهاجبابرةالجزائرين، يغرس البنادق على قبور الشهداء يمد يده للنور فيعانق سمو الهدف، يحضن ما بين مقلتيه، الغد المتسلح بالثورة، يقلب طاولة الحوارات رأساً على عقب فوق رؤوس الفرنسيين، يحرس لغة أهل فرنسا ويبشر ملأ الكون باللغة العربية، لغة القرآن والرسل، يتحدث لغة الدم مع المستعمر، الورقة الرابحة التي تفوز مهما طاردها الدهر أو لعب بها الخوان، بلد المليون شهيد والملايين الثائرين.

الجزائر التي ترسم بعصافيرها حمراء الدماء. احتلت من قبل فرنسا كحرب عقائدية وأسميت بفرنسا ما وراء البحار، فرنسا والتي عرفت بسياستها الدموية وبمجنزراتها العاهرة، احتلت الجزائر فشردت أهلها، وقتلت، وذبحت، ونكلت، واعتبرت أن الجزائر مستوطنة لهم، قام غورو أحد جنرالات الجزائر باتباع سياسة الأرض المحروقة.

رد الشعب الجزائري بقوة على عنجهية الفكر الفرنسي، فعمت الثورة أرجاء البلاد، وتكللت بالنصر وبخروج فرنسا مهزومة.

تشبث الجزائريون بسماء بلادهم، وتشبثت سطور التاريخ بالاحتفال بنصرهم، أرهبت نسوة الجزائر كبار ضباط الجيش الفرنسيين، فكانوا يساعدون الثوار في اختراق الحدود والعبور لداخل فرنسا وتفجير أنفسهم هناك.

أشلاء الثوار جعلت من فرنسا السوداء بيضاء لطهر تضحيتهم، هكذا يتعلم العدو من انهزاماته، خطت حروب الجزائر سطور البطولات في التاريخ وفرقت فكرة الفرنسيين في أن الجزائر قطعة من فرنسا.

هكذا كسر شعب الجزائر العظيم حدود المنفى وضم للوطن، هكذا بطش الجزائريون صور الفرنسيين القاسي الذي لا نستفيد شيئاً من قسوته سوى القسوة، الجزائر تعد منارة فخر لكل عربي.

الظلم الذي زال والنور الذي حلق، فرنسا مهزومة، الجزائر تنتصر، إنها راية الحق إلى ما فوق السماء ترفع، بلد المليون شهيد، وضعيفة: هم ملايين. كانت الجزائريات يحشدن للفتح المبين، قبل أن تصطدم مخابرات العدو بخصال شعرهن، عبد القادر الجزائري، عبد العزيز بو تفليقة، محمد بوضياف، حمله بوجدد، الجزائر، قباني، كنفاني، الظلم الحرية، الثورة، أنه يوم الميعاد، يوم يهبط يسوع للأرض، تكون غير آمنة، الفوضى والاضطراب بسبب الأعور الدجال.

جنون الكون، جور الظلام، صمت التضحية، تنفس الشر في صغره، الفكر الإرهابي الماسوني عبقرية المستمر، دخول العرب في غيبوبة دورة التاريخ، احتكاك المشاعر في الصميم وغرق الحياة بالأغاني الصاخبة، إنه العالم، يتغير.

زاد كلامي عن حده، أصطحبه لطبيب نفسي، خالتي ترفض أن تصدق نبأ انفصام شخصية ابنها الذي ليس ابنها أصلا، لا أفهم كيف تتعلق به هكذا، كيف يحد السد من غضب الشلال؟

لم لا تبني له السدود؟ لم لا توقف أنينه، أنا أيضاً أحبه، أن تحب شخصاً ليس أن تتيح له كل مآرب الحياة، ليس أن نفتح له أبواب كل شيء وتقنعه أنه هو فقط الصواب، وأن الخطأ لطالما سيخطئ سيره نحوه وطرقه أبوابه.

وتمضي صفحات العمر تكتب عليه الخطيئة وتكبه على وجهه صفحة مهترئة ما عليها، ثم إنه لم يرث شيئاً من قوة من رباه، ذاك الجلد الذي فرق أوراق الفرنسيين الذين اقتلع حناجر الظلام ودك عساكرهم، أين تكمن القوة في أن تبكي على امرأة طول عمرك؟

ليته يفهم أن سير الأيام لن يتوقف عند أناته، وإن خبأتها عقوبة القدر على أنه خان نفسه عندما تربع على عرش علاقته الماضية، هذا البيت الحمصي الصغير الذي احتضنها، أحبه، وأحب سليم كأخي الراحل، لكنه يرحل بطريقة مختلفة، أخ يرحل لأجل وطنه هو سيذبحه منفاه، أكره أن أراه هكذا يتخيلني خائنته، في حالة انفصامه وأخته الوديعة في حالته الطبيعية.

أذكر أن قرأت مرة في كتب أخي النفسية أن مريض الانفصام يحيا بشخصيتين متناقضتين، لا تشعر كلاهما ببعض، يبدو أن الأمة العربية جمعاء تعاني من هذا المرض لكن عمداً، مريض الانفصام يعاني أولاً من ضغوطات نفسية تتكاثر مع الأيام، حتى يأتي موقف معين يؤدي لانفصام شخصية بفعل الصدمة، حتى لا يتميز بين الخير والشر، ولا يتذكر في حالة انفصامه ما كان يفعله وينكر أن يعترف أنه مريض أو مسه ضر، سليم الشاب الوسيم الذي يتخيلني أخته مرة وخائنته تارةً أخرى.

كانت خالتي تبنته من أحد مياتم حمص عندما بلغ السّنة، لم أدر لم هو لا سواه، تقول خالتي دائماً أن العيون الخطيرة، دائماً ما تقلنا نحو ما ينتظرنا دون نعلم، أترى عيونه قادتها لحتفها! فتنبه لم يعلم هو أنه لقيط، ولم تخبره خالتي، حتى أنها أجبرت نفسها على النسيان وجلدت ذاكرتها بقسوة، فماتت ذاكرتها ونصف مذكراتها تكتب عنها ألم ما تشعر.

اعتنقت خالتي الكتابة عند اعتقال زوجها، كانت ترسل له حروفها مع الريح تقيد حياتها بأحلامها به، ترسم وجهه يومياً بمرآتها تحتها بالدموع، تبنته ليؤنس وحدتها، كان هو عزلتها الحقيقة بالغت في حبها، أعطته كل شيء قبل أن يفكر به، بلغ عطاءه حد السماء فارتطم بغروره، سليم الشاب المنزوي دائماً يحادث الفتيات ويعاكسهن، حب الأم لابنها فطرة، لكن بذخ حبها جنون، يهلك العاطي والمعطي، لطالما كانت تغرق في معاملته عنا، كان لقيطاً وجد من احتوى ضياعه، كنت يتيمة أحيا في الفراغ، أهيم على وجهي، أتقدس عاطفتها التي سد رمقها هو، وتهمل صلبها؟ أو كسرت صليبها التي وهبها لها جوف الأحزان.

أي كانت المسائلة ليست وجعي، بل كنت طالما أرى آثار الخطأ على ملامح سليم، والذي يحتوي الحياة بملذاتها يفقد نقاءها، ينقلب بين جوانبها فتبقى أسيرها، حتى في حريته، توالت الأيام ونحن نعتقد جميعاً أن سليم ابنهم الحقيقي، تفاجأنا ذات يوم عندما كنا نقوم بتعزيل المنزل أن سليم كان يساعدنا.

السقيفة المستديرة في غرفة خالتي، يجب أن تنظفها، صعد سليم، وجد بعض الدفاتر ورسالة منذ أعوام طويلة كتب فيه شيء دفعه للبقاء أسابيع وحيداً، لقد علم بالأمر، كان الصندوق بيده، قرأ رسائل داخل الدفتر، فوقع من جسده قلبه، وحوله كومة من الدماء التي امتزجت بغبار التنظيف، ولمعت من عينيه بعض الدموع لم أدر بسبب الرسائل أم بسبب وقوع قلبه منه، أعاد قلبه لجسده، وترك دمه على الأرض، داس عليه ونزل غرفته بقي أسابيع وحيداً بها.

كانت تلك صورته في مخيلتي عندما رأيت ماله أثناء قراءة الرسالة كانت خالتي قد كتبت ما يلي:

زوجي الأسير:

سرت كثيراً في شوارع حمص اليوم السكان تملؤها والفراغ يملؤها، أوراق الخريف تحت قدماي، أدوس بهما وحدتي وضجري، قادني قدري، لذاك الميتم الخابي الأطراف بسكنه، من رمى القدر بهم في أحضان الخطيئة، غريبة هي هذه الحياة من دونك، لا لون لها ولا سطر يتسع لأكتب لك شوقي، أحبك، وأتمنى لو كان سير الأيام أبطأ لخبأت داخلك طفلي الذي لن أنجبه أبداً، لو أنني معك الآن نتقاسم الوجع، كان أفضل من أن أتقاسم عزلتي مع ظلي ووحشتي وغربتي التي أحضنها كأنها أنت، تشتت الأيام في غيابك فتصنع مني عجوزاً مجنونة تبكي عريسها الذي استشهد يوم زفافه بأكبال القدر، فقيدي، أكتب إليك حروفاً لن توصلها الرياح لأبعد من هذا المدى الوحشي، الذي أحيا به من دونك، وأنت البعيد مكانياً عني، الجليس معي روحياً، وأنا التي احتضنت صورتك حتى في خيالي، وأنا التي أرقص في العيد معك، لم يعد يأتي العيد مذ غيابك، آن آوان الرقص تعال بالعيد، لطالما رجوتك، هي وحدتي التي احتدمت بالغيبيات دفعت بخطاي لباب الميتم القريب، وأيضاً تخيل، دفعتني لأن اصطحب معي طفلاً شعرت أنه إلى حدٍ ما يشبهك، فهو تقي، بريء، يحب الحياة ويعلم كيف يمتلكها.

قالوا لي في الميتم أنهم وجدوه بلفافته، وهو ابن شهر على باب الميتم، ويدعونه كريم لأنه جاء في يومٍ ماطر، فأسميته سليم، لأملي إن كان ابن خطيئة أن يكون سليماً منها، سليم يشعرني بك، فأنا أحتاجه منك، ليس من الرذيلة، أرى ملامحك بألعاب سليم، وطفولتك بعيونه، أغرق بكما، سليم الطفل الصغير الذي أعاد لي الضحكة، هو نفسه الطفل الصغير الذي خبأته يوماً داخلك، عد في يوم مطرٍ كريم، فأنا اشتقت لك، عد لي في يومٍ كريم، يومٍ سليم.

زوجتك المنتظرة

أحلام

هناك من يمارس الرذيلة لإشباع غريزته

وهناك مع الفقر من يمارسها لإشباع معدته

والثمن في حالات كثيرة أبناء بلا آباء

سعود السنعوسي

أنا ابن الخطيئة، كانت كلماته التي لم يستطع نطقها، مذ علم ما حل به وكل حياتنا قلبت رأساً على عقب، يحب العزلة، الوحدة، تقديس الدموع، الحديث مع الظلام، إطفاء الشموع، إنه تعيس تماماً، لم يكن يوماً يملك إرادة الحياة، والحياة لم تكن ترغب به كما كان أخي يقول، بسبب حياته الفارغة، طالما كان أخي يسارع في سد ثغراته، دون جدوى وماذا يجدي حزنه، وماذا أجدى حزن العرب ستين عاماً على فلسطين!

كل دموع الأرض لن تصنع لنا قارب نجاة صغير يوصلنا لوطن ان لم نصنع قاربا من امالنا فلن تخلق لنا الخيبات واحدا، وما الفائدة من صراخه على خالتي، أنت مخادعة، أنت كريهة، كيف تكذبين علي كل تلك السنين، أنا من، من أبي وأمي؟ والتي كانت ترد دائماً عليها بالصمت والدموع، ومن أين تأتي له بأجوبة، صاغ القدر منها مستحيلا، ومن أين تأتي له برحم أمه تعيده إليه كي لا يقسو على نفسه فتحزن هي على وجعه، كنت نظرت لها على أنها عظيمة، لو أنها ربت لقيطاً على كرم الأخلاق، لكن خوفها من وحدتها جعل منها عصى سحرية لتلبية الرغبات فقط، وعلى الرغم من ذلك هي إنسانة طيبة، دائماً ما تقول حسبي الله ونعم الوكيل، خالتي التي تقسو عليها الأيام يقسو هو عليها الآن أكثر من الأيام، وما ذنبها بعهر قصته؟ وماذا تفعل له إن كان هو أصلاً كذبة اختلقتها لسد فراغ حياتها، كيف يخاطب من أحسنت إليه هكذا.

ما أصعب القسوة، يا رب لا تجعل قلوبنا قاسية، بل اجعلها تأنس برحمتك، تصبر على قضائك، توحد وجهك، تعظم كرمك، يا رب كنت دائماً بلسماً لجروحنا، ودواء لشتات حياتنا، ربي وإن كنا قوماً ظالمين، ارحمنا فنحن عبيدك، اللهم ما حلّ بنا من نعمة فمنك وحدك لا شريك لك، يا رب اجعل قلوبنا عامرة بذكرك فإن بذكرك تطيب الأوجاع، يا رب، كن الصاحب والصديق في سفر حياتنا.

أحلام، اسم خالتي التي رعت يتمي وأخي، وعلى الرغم من اسمها، لم تكن أبواب العمر بوسع أحلامها فانغلقت أمام وجهها، وتحولت أحلامها لمجرد أمنيات، كثرة أحلامها وشاعريتها أودت بها لجوف الظلام واحتكت بأوراق الشجر الخاوي أغصانها إلا من الخشب المتيبس، أكان حلمها بامتلاك طفل كمثل سليم كبيراً إلى هذا الحد؟

أم إن حلمها بأن تكون كاتبة كانت الأجدر بالحزم، أم حلمها بعودة زوجها كان الأكثر استحالة، حلم خالتي أحلام، أحلام مستغانمي، لم تأخذ منها سوى العاطفة والقوة ولكن دحرت كاتباتها بشأن التمرد على الرجل، كانت تظن بأن الحياة ليست رجلاً وليست أنثى كما تقول أحلام، بل الحياة عبارة عن نسيج مترابط من الاحترام المتبادل بين المرأة والرجل فيتشكل اسم الأسرة، الرجل غبي بقسوته، صحيح، كما الأنثى بلهاء بعاطفتها الزائدة، احتلت مستغانمي عرش العواطف، وجردت الواقع من خيالاته بالنسبة لقرائها، لكن أحلام خالتي كانت مختلفة كل الاختلاف عن مستغانمي، لكن على السبيل الأخف وطأة، كلتاهما تمتلك حلما، على الرغم من تعدد سبيل الحياة، إلا أنها تؤدي دائماً لدربٍ واحد، كل الأحاسيس تمثل شيئاً واحداً، الروح..

كل الناس يمثلون اسماً واحداً: البشر

كل الأنبياء يتكلمون عن الواحد الله

كل الناس في الجنة يتحدثون لغةً واحدة،

كل شيء، في النهاية واحد حتى نحن البشر من آدم،

يا أيها الواحد الأوحد الصمد،

شكراً لأنك خلقتنا من واحد، فنحن إذاً

جميعاً نملك قلباً واحداً، نفساً واحداً،

وربا رحيماً واحداً،

بعد ذاك الإحسان الذي قدمته لنا خالتي فرعتنا وأخي، كان يحب أن نصنع لأجلها وابنها شيئاً يعيد البسمة لزوايا هذا المنزل التعيس.

أخي سمعه ذات يوم يتحدث عن فتاة يحبها ويشعر أنها من يحب أن تشاركه حياته، فاستطاع أن يصل إليها، وأن يتحدث معها بشأن تعاسته، فسارعت له يومها وأخرجته من حالته بضحكتها فقط.

كمية التناقض التي يحتويها غريبة، حقاً، كنت سعيدة بحضور حفلة زفافهما، وتعيسة بسماع نبأ خيانتها له، مذ تركته في مهب الرياح، انفصمت شخصيته تماماً، كانت الرد الأفظع للقدر، الأقسى على الإطلاق، أصبح يراها بي، على الرغم من بعدي عنها، كانت تمتكله بكل صور القسوة، وكأنها نساء الأرض، وكأن ذمة القارب تبحر بها، لم يكن يصدق قط، أنها، المد والجزر، الحت والترسيب، العواصف، الدوامات البحرية التي جعلته يهيم بها فيغرق، فتبتلعه وترميه شبيه إنسان قتيلاً، على رمال الشاطئ الحارّة، تتجمد مشاعره، كما يحدث عادةً في الأفلام الأمريكية تنتهي أفلام الإثارة بيتمرد البطل على واقعه ويتحول ما حوله بقعة من الأشياء المحطمة، أيعقل أن تكون حياة سليم مبعثرة فوضوية إلى هذا الحد، تفاجأت يوماً أنه جاء يقلني من جامعتي إلى البيت، وطول الطريق يحادثني بلطف، شعرت بالراحة لأنه بدأ يتحسن، سعيدة لأجله، لكن أيعقل أنه تجاوز الأمر دون علاج، نعم لمَ لا، فهو على أي حال رجل، يجب أن يكون على قدر من القوة يخوله أن يتحدى ما حوله ويكسب الأمور بقوة، إن اهتمامه بي يريحني ويخيفني، لمَ يهتم بي وحالما يسارع لمساندتي في أي شيء، دون أن أطلب، أيعقل أن مشاعره تحركت بسبب فقدي أخي، قرر أن يساندني بدلاً عنه! تهديداته السابقة لي بقتلي، عيونه التي كانت

تفترسني وترميني دون رحمة، الحقد الذي ملأ قلبه، القدر بوجهه القاسي، العدل الذي تفقد، الشخص اللطيف حالياً، سليم، أرجو أن تظل دائماً هكذا.

على الرغم من تحذيرات أمل لي من سليم، لم أكن أقتنع، لم دائماً تحكم على الأمور بعقلها . تحتاج لعاطفتها أحياناً، لم ترغب في أن أبتعد عنه، أنا بحاجته وهو بحاجتي، كل منا يكمل الآخر، أنا تائهة دون أخي، دون عائلة، دون وطن، وهو أيضاً، كل منا تائة عن نفسه، ما الجدوى من تحذيري منه وهو الذي نشأت معه وتقاسمنا سواسية الفرح والحزن، أيعقل أننا ننتحر معاً، أحرص على نفسي منه ثم، وهو لم يؤذني، من ذا الذي يؤذي أخته؟

لست طيبة زيادة عن اللزوم، كما تقول أمل، لكن أكره تدخلها بأموري، لست صغيرة، أنا وحيدة، لمَ لا تبتعد بأفكارها عني فتهرب لعالمٍ آخر، لمَ دائماً ما تلوث حياتي بحرصها الزائد علي، أخاف أن يقتلع مني في أي يوم فترسم ذاتها في، أكره خوفها يخنقني.

يومي كان مشمساً تماماً ممزوجاً بصوت فيروز أستحضر مقولات بعضهم، رجال يسكنون فكري، عظماء في خيالي، يتشاجرون لوجهات النظر، اختلافات المنطق، القسوة والرحمة، الوحشية والتمرد، قد تكون قاسياً لكنك في النهاية إنسان، كانت في ساعديك ملامح الخشونة وجور السنين. لكنك ذللت الصعب، يحمل وجهك طيات لكن وجهك أضاع وطأة جور الأيام، يحتوي جوفك قلباً باكياً، ويلمع منك الأمل، صوتك الصارخ مضطهداً الظلم، بكى ذات ليلة خوفاً من أن تجمع الأيام جيشها فتسد ثغرات الظالم حيث يقيم سربك، كن من أنت حيث تكون، افرض وجهة نظرك بقوة، افتح أبواب الحياة على مصراعيها واحصد النور الطالع من الشرفات، افسح لأحلامك مجالاً، خذ من عمرك زمناً تفك به أسر بسمتك، عش كأنك كل الموجودات، ثق أنك أنت المختلف في كل شيء كن واثقاً، لا جبارا، كن قوياً، وليس فاجراً، افرض قوتك واجلد الخطأ ولكن اذكر بأنك جيد، قابل بالإحسان سيئاتهم، تكن حامل أخلاق نبوية، ارفع راية الحق ولو علت، فلولا الجرأة ما كان الإنسان قضية،

ثق بأن أحلامك ستتحقق، لولا الإيمان فلم خلق للشعر سجية، احمد الله على السراء والضراء، واعدل في فكرك واحمل شعلة الرسالة، ولتر في كل الخلائق آية حميدة، كن على يقين بأن الله ما خلقك على وجه الكرة الارضية إلا لتكمل تدويرها، فلتبحث في كرويتها عن الاختلافات، فلتكتشف المربع، والمستطيل، والزوايا المنحنية، والقلوب الفاتنة، وتُتم شكرك في إبداع ما رُسم، فأنت لست مجرد آلة تتحرك، تأكل، تشرب، تنام على أهدابها، تضع المساحيق لتخفي عيوبها، تطيل شعرها فتثبت أنها عذراء بريئة. أو تفقد أمور السنين فتنفخ دفاتر الأشرعة وتبحر لما وراء المجهول فوزع على الرجال تذاكر نجاتهم، توصي الأسماك بعدم ابتلاعهم تفص في اجتياز الصفة الأخرى، فالغربة، بيت عزاء لميت ما رحل، لو لم تكن خلقت لقضية، لما كنت الآن رغم صعاب الحياة حياً، لما كسرت نظرية الاندثار، وصرخت بالغد قوياً لما انفكت دفاتر الأمل المجنحة بالتحدي، وألفت السم الزعاف على ما مضى وتكبدت خسارتها لنجاح، فالنجاح أحياناً عبارة عن محاولات مكررة من الفشل حتى الفشل، ثم نجاح، حتى الإنسان بحد ذاته رسالة يجب أن يحملها ويقاتل من أجلها، فيحقق حقها، ويشد أزرها، ويمضي سريعاً إلى حيث يجاهر بها، فيعطي ما شاء الله عطاء جنياً، ثم يسد الحواجز المفضية إلى قتلها.

مت في سبيل رسالتك، انثر فضيلتك، فموتك دليل خلودك.

سيبقى اسمك مرفوعاً مع نعشك متطايراً فوق الرؤوس.

سيحلق النور يسمو يحدث الضياء عنك.

وستصنع الفراشات رحيقاً من زهر أهدافك.

لا تعش خاوياً، لا تمت كمثلك من البشر.

يلفظ آخر انفاسه، تبتلع السماء روحه.

يبكي الناس على ذكراه.

كن كغيرك ممن أثار موتهم تفجير حضارة.

درويش في رمزيته الرائعة، كنفاني في ثوراته، وتحديه، في مواجهة حتفه مبتسماً، لم يمت قبل أن يصبح ندىً.

استحضر غاندي الذي فجر ثورة من البياض، وهو الذي كان يفجر المحاصيل، يفجر اليوم مشاعر السلام في حواسنا.

كن عرفات في جرأته، صدام في حزمه، الطائي في كرمه، هيلين كلبن العمياء التي انجذبت البصائر لدربها، ارسم الاختلافات المتناقضة في صورة واحدة لتغدو دافنشي، احكِ نصر الضعفاء كبؤساء هيغو، حدث الناس بقصتك العشقية الفريدة كقصة مدينتين لديكنز، كن رحيماً كمحمدٍ، محباً كعيسى، صابراً كأيوب، عفيفاً كيوسف، مختلفاً كسليمان، طاهراً كمريم، صادقاً كإبراهيم، مطيعاً كإسماعيل، كن ناصحاً كلقمان، وشديداً كذي القرنين، كن بشراً تحمل كل البشر، اخضع لمن أوجد كل شيء فأبدعه، لا تحجب أحلامك عنك لحظة واحدة، أطلق العنان لنفسك، استحق قلبك كإنسان، دب بالأشياء من حولك روحك، فلتكن أنت بحد ذاتك حياة مختلفة، تأتي بالسعادة للجميع، كن من أنت حيث تكون، أنت إنسان، لا تيأس، لا تيأس، إنسان، لا ييأس، كما كان يضرب الألم فيصميه، كان كلام أخي الدواء من أوهامي، لم يعد ذكرى أصبح لي الوطن بقدسيته، كيف يصنع الإنسان من دموعه نهراً يسقي به غربته، لا تكن ظلاماً دامساً فتبشر بالشؤم، فجراً كن، السعادة والأمل، كن ناصحاً لا متحكماً، كن سامعاً لا مسترداً، لم تزل كالفجر تراودني أخي.

صباح الخير أليسار

صباح الخير سليم

ما هو حالك؟

بخير وأنت؟

بخير، أسعدك الله.

أين أنتِ؟

في الجامعة أكتب لأخي مذكرات لن يقرأها.

أدرك جيداً أنها متصلة، حتى لو كان أشلاء سيعاود حمل نفسه من أجلي، أدرك أيضاً أنه يقرؤها، سآتي لاصطحابك، من الجامعة نخرج سوياً ثم أوصلك للمنزل.

نعم، فأنا بحاجتك.

أغلقت محمولي، وابتسمت ملياً.

هناك من يسد لي فراغي، ويحيا بي.

على الرغم من براءة صوته سليم، إلا أنه كان خائناً، أو خائفاً.

ذاك الذي يجالسني فكرياً، وأنا أتخيله أخي، إنه مختلف عنه، لكني مضطرة أن أتخيل به وهمي، أتراه الحنين يوجعني، أم هو رضوخي لصبري، علّي جننت، أو ربما لم أكن عاقلة قط، لكني اليوم اكتشفت جنوني، فسرت في الطرقات أفرد شعري، فأما لم أمتلك الجرأة لأصبح وحيدة، احتاج من يصرخ معي، من أشاجره، من أبكي له وبسببه، كم كبير من المشاعر تغتالني، متعبة أنا، حتى من أنفاسي، تأبى أن نخرج بسرعة، أخشى أن أودع ما بقي مني، جسمي بارد كأني غرقت في الثلج فأصبح ورد ياً خائفة من الحرب، على الرغم من رحيل نيرانها، بعيدة كل البعد عن نفسي، ضعيفة بقدر قوتي، حزينة بقدر فرحي، صابرة رغم عصياني الداخلي، أتحدث مع نفسي كثيراً، دون أن أسمع ما أقول، مئة ألف شخص في دائرة خيالي

يتحدثون سوياً، هلا سكتم، لقد أتعبتموني، دموعي تتساقط بفعل وحدتي، وابتعادي عن أمل، واقترابي من اللاشيء، أجلب نيران الصبر، أحرق دموعي، أطفئ الوجع، أمزق ستائر الألم، أنا الممتلئة القوية الضعييفة الوحيدة، أنا هنا، في القمة، في كل الفصول، أدعو الحب للابتعاد، أغلق للياسمين الأبواب، وأقترب بالدفع آلاف الأسراب، هنا أخبئ في مكتبي ما بين الأوتار والشجن، ليتني أبكي لجمال البكاء في ساعة الغياب، ليتني أنسى عجزي الذي حطّم حواجز الصمت، وضع بظلمه سطوة جور الحكام، استعمر حتى الطفل البريء داخله، حرق بجوره عرشه، قبل سطور الغمام، سطور الماضي، أغلق الكتاب، أطفئ الشموع، أوقف التقديس، اصنع من حركات العبودية جماداً مشلولاً، تباً لك يا عجزي، فغداً سأريك فتاة بيضاء نفتك إلى المريخ نفياً أبدياً، غداً أريك ما تفعل بك صابرة قوية، من نافذة الماضي، سألقيك وأحيا بدونك، وها أنا أقسم، لست عاجزة، أنا بيضاء قوية، تصارعت داخلي إرادة الموت بالحياة، لم تكن الحياة سوى الوجه المقابل للموت، الصراع بين الفضيلة والرذيلة، كسبت إرادة الحياة بعد موت كل الجمال داخلي.

الحياة التي أخذت مني كل شيء، أعطني كل شيء، علمني كيف أحب خصمي، فأخضع جبروته، زرعت على مقابرها بسمتي، وإني هنا على ارتفاع شاهق قريب من السماء، بنية واقفة، أدعو للجميع بأن يمتلكوا إرادة الحياة، إنها مسلسل متكرر من الأوجاع، القوة فيها روح التحدي.

لم يكن لها معنى، لولا وجود الوجع لما خلق الأمل، لولا الضعف لما وجدت القوة.

أكون أنا المغنية، العاطفية، الجريئة، أمتلك الحياة بمقوماتها، أخضعها لصوتي، تسقط قتيلة، فقط لأني، أتحداها.

عزمك على خوض النزال هو بحد ذاته ربح، فكرك البريء طهر، حتى لو لوثته أفكار النجسين.

إنما الحياة مسؤولية، فقط تحملها، تحدى صعابها واصعد، أطلق لنفسك العنان كما قال أخي.

ترافقت صيحاتي المنطقية مع وصول سليم ليقلني، يبدو لي مجهداً، يفكر كثيراً، لم أدر ما الذي عكر صفوه، ينظر لي بعينه، تارة أشعر أنه يحبني وتارة أشعر أني أكره مخلوقات الأرض له، لم هو دائم التناقض، صعدت السيارة، حتى هذه تبدو مختلفة اليوم، لم أنا مصرة دائماً على صياغة الحوادث؟

تسير الحافلة بسرعة، جو من الصمت انحصر بيننا، السيارة مقفلة الأبواب، الجو يزداد حرارة، أشعر أني أختنق كلما تذكرت تحذيرات أمل، الأرصفة تناشدني، أحزمة الأمان تعلن الخطر، وجه سليم يبدو لي مزيجاً من الوعي واللاوعي، القوة والانكسار، الحب والقتل، كل شيء داخلي صاخب، إلا أن الوضع العام يبدو هادئاً لدرجة التجمد، السيارة تمضي بسرعة، بسرعة، الذي نخاف أن يأتي، الخوف داخلي يزداد، أصبحت أصرخ، أنزلني، ورأيته يضحك، ويضحك، ويضحك، بصوت خيل لي أنه أبله ما قد فعله، لكن ارتطامنا بحافلة أخرى، أوقف مابي من فزع، كان يوماً أبيضاً، تلون بالغناء للدماء واكتحل بتلحفي الغياب، يبدو أن عمري لم يكن ليمر بسهولة !

في المشفى الوطني المتواجد في حمص كانت عمليتي، تم نقلي للمشفى وكنت أنزف دماً كثيراً، دمي ملأ الحافلة، الأرض، الحجارة، السيارات العابرة، عيون المستقبل، الأشخاص الذين أقلوني، وضعي الحرج، كنت أنزف دماً، والأطباء يعجزون عن إيقافه، لم أفهم لم؟ وبالرغم من هذا التطور الذي توصل إليه العلم،

كيف وقفت أدوات جراحة عاجزة عن رد الروح لأحدهم، إنها إرادة الحياة في التسليم للموت.

خالتي تبكي، ولم أكن أدري، أوعلني خفت في أن أستغرق بالتخيلات فأعصي حزني، أكانت تبكي علي، أم على ابنها، أم على كل ما مضى، في العملية الجراحية تم استئصال الأمل من أحشائي، لو أنهم استأصلوا كل أحشائي، وأنقذوا هذا العضو المعنوي غير الموجود أصلاً، العضو الخفي الذي بسره تتناغم الأعضاء الأخرى مع صفة بقائها، رغبت بان أمتلك عمراً آخر، فكراً آخر، ودورة أرضية أخرى لأتمكن من فهم ما حدث، وكأن ما حدث كان، وهم، وهم، أودى سليم في غيبوبة، وأرداني نازفة، ترى الأطباء يبكون عليّ، تراقبها دون أن يتمكن من رؤيتي أحد.

في واقع الأمر كانت تصوراتي محض خيالات فلم أكن مستيقظة، سيطر الحدث علي، أفقدني جسدي ودفنت روحي، وكنت غائبة حاضرة، انتظر الأطباء أن يأتي ملاكاً يحمل لهم دماً من أحد ما، زمرتي O سلبي، وكان العمر يركض نحو النهاية في ظل موتي الذي أرتدي له الأبيض، وأسير في شوارعه السوداء، أغرس ما صنعت في حياتي وأغني للبقاء تراتيل الرحيل.

الأطباء حولي يعجزون، خالتي ما بين سبات ابنها أو نبأ موتي محطمة، أمل القوية تصلي فتدعو وصدام يظهر فجأة، فتح أوردته على مصراعيها فسكب من دمائه علي، فسقوني حتى كدت أغرق.

صوت بكاء خالتي كان عالياً، حتى وصل أحد المارة، فأثار دموعها، دماءه، فاتجهت نحوي، صاحب الزمرة الفريدة، يبدو أنه بحد ذاته أحجية، فقد والدته يومها وكان هناك بغرض جلب الجثمان فأعادني من جثماني.

رأيته هدية من الله، كان أول من رأيت عندما فتحت عيناي، بدا لي غريباً، وشعرت أني أخاف منه، ملامحه القاسية، يبدو في الأربعين من العمر، كان حزيناً،

حازماً، صارخاً، كأن كل الأشياء الغريبة لشخص لا أعرفه أصلاً فلم أفكر به، قاطعت أفكاري خالتي:

- الحمدلله على السلامة حبيبتي
- الله يسلمك
- شو صار
- صار حادث معك أنتي وسليم
- حادث، قصدك حقق خططتو.
- شو قصدك؟
- أنا تعبانة خالتي (قلت بتنهد)!

شيء ما بداخلي كان يصرخ، لطالما عبرت عن حزني بالغناء، لكني هذه المرة لست حزينة، ولم أرغب بالغناء أيضاً، للحظة رادوتني مشاعر كراهية اتجاه الشخص الغريب الذي يدعى صدام حين كان ينظر لي بعينيه نظرة شديدة. أضافت خالتي:

- لولا فضل الله علينا وفضل هالرجال كنت لح تموتي.

ابتسمت لها وقلت له:

- شكرا إلك الله يجزيك الخير.

وتحدثت مع نفسي كثيراً، أكان فراري من حياتي وركضي صعوداً للسماء الخيار الأنسب للراحة، أم أن أكمل حياتي بقوة هو الخيار الأجدى لمواصلة حياتي، لم يجب أن تقتلني الأيام كثيراً، أنجو من موت لأغوص بآخر، يأتي الفجر، يبدو أن ليالي عمري ليلكية، يعجز سوادها عن استيعاب الأبيض، ويبدو أن قوس قزح أيضاً،

لا يستطيع، ربما الظلام، ويبدو لي أيضاً أن نجاتي من حادث سيري المقصود، نفت روحي الجديدة التي باءت محاولاتي لاستقطابها بالفشل.

- شكرا لله طمني انك بخير (أضاف صدام بلهجة لبنانية).
- شكراً لك منخدمك بالأفراح.
- شكراً إلك، أضاف بتهكم، وقام عن مقعده المجاور لي واتجه نحو الباب وقبل أن يخرج نظر إلي نظرة غريبة، وكأن عيناه لإنسانين فيهما مزيج من الأشياء المختلفة، كالتناقضات حين اجتمعت في أشعار درويش.

تخيلت أن عيناً نظرت إلي بطابع الرحمة، وعينه الأخرى نظرت لي بمنتهى القسوة، شعرت أنه يفك قيودي ويكبلني في آنٍ واحد.

كان سليماً من كل شيء إلا منه هو، عيناه بحد ذاتهما تفاصيل رواية أظن أن لن يكتبها أحد، من يكتب رواية لا يعلم تفاصيلها، فقط يسرد أحجيتها، يفك شفرة عيونه.

- رح ارجع اطمن عليكي (أضاف) بس ديري باليك على حالك وخدي الأدويي ولا تتعب بالتفكير، التفكير بخليكي حدا تاني، حدا مجرد من حالو، مستفرد بخيالو، عيشي بدون تفكير، أنا ما بعرفك، بس بعدما عطيتك من دمي، صار لازم أنصح البنت الدمي عم يمشي فيها، كونى بخير من شان حالك، ومن شان توصلي يمكن لازم تجربي الهبوط، لتعيدي الإقلاع، وطيري بعدا.

ولم ينتنظر مني أن أجيبه، رحل وتركني مع كلامه حائرة أعد جداول الإحصاء لأحل عقدة تمربه، يتكلم عن الرحمة بقسوة، كلام شاعري يخرج من فيه وهو صاحب الملامح الجدية، يريد أن يوصل مشاعر الإرادة في، وهو العاصي عن إنزال نفسه

فقط لمستوى كلامه، ليعلو بي وبه، لكن شيئاً ما يجعلني أنسى ما حدث معي، وأفكر فقط بمن أعطاني دماً وتساؤلات كثيرة، أعتم بكثير من حمرة الدماء، والتي هي اليوم، دمائي،

اتكئ على جدارك الضبابي بانتظار ان تنزل سلالم النور الي من حيث لا احتسب سلالم ترفعني الى حيث لا ادري وتنتشلني من كل هذه اللجة

مصلوب انت في قلبي فرجل مثلك لا يموت بتقليدية رجل مثلك يظل على رؤوس الاشهاد لا ينسى ولا يرحل ولا يموت كباقي البشر

اثير عبد الله النشمي

صباح يوم الأربعاء، أحضن قلادتي، التي هي عطر أمي، الذكرى الوحيدة التي تركتها لي، باقة ورود جانب سريري تحمل ألواناً مختلفة، أصفر، أخضر، زهري، برتقالي، حتى إني رأيت وردة زهرية حوافها صفراء، ما أثار استغرابي هو تغيب اللون الأحمر، والأبيض .. بطاقة مربعة مكتوب عليها عبارة غريبة: "لا تقصي شعرك" ، أيغازل رجل أنثى من خلال خصالها!

كان مكتوباً صوت الشباب الساعة ٩ صباحاً، انتظرت الوقت بفارغ الصبر، كان بطيئاً جداً وسريعاً أكثر مما ينبغي، صورة صدام في مخيلتي الرجل الحازم، الورود التي تحمل كل الألوان إلا ألوان العشق!

ما معنى صوت الشباب ولم يجب أن أتابعه، كيف يباغتني ذاك الرجل، يعطيني دمه،، يأتيني بفكرة متخبطة بين أن يكون هدنة الرحمن، وأن يكون سخط، لم يظهر شخص مثله اتجاهي! حافلتي المنحرفة لا ينقذها، بل بمباغتته يستطيع صدمها، ولكن منظر الحيرة بجذبه، فيجلس متخفياً، ما بين الصدمة ومحاولة النجاة في كل ما يجعلني أفكر ملياً، جائني الوقت مهرولاً الساعة ٩.

صوت الشباب:

المذيع: صباح الخير أحبائي، كما اعتدنا أسبوعياً أن نقدم شخصيات مميزة، استطعنا اليوم أن نحظى باستضافة الكاتب صدام حداد، من أوائل الكتاب السياسيين والذين تجتاح كتاباتهم الأسواق، ترجمت بعض كتبه للأجنبية، صاحب الشخصية القيادية، والنهضة العسكرية، لبناني الجنسية من أم سورية،

- سعيد صدام نتشرف بمقابلتك!
- أهلاً بكم ولكم مني كل المحبة.
- هل لنا أن نتحدث وإياك عن بعض تفاصيل كتاباتك؟

- نعم، أكيد.

- لم تكتب الآن؟ هل لأن الكتابة تمرد أم لأنها السلام؟

- في الواقع الكتابة مزيج من الأفكار والمعتقدات، قد تكتب للإنسانية وأنت وحشي، وقد تمتلك فكراً عظيماً وأنت مجرم كهتلر،إن الكتابة هي نافذتك لتحويل ما تخلفه فكرياً لأي عنصر حي متواجد، يتيح للعامة أن ينبهروا فقط لمجرد فكرة قد تدق خواطرهم يوماً ما.

- ما رأيك بالاختلافات الفكرية؟

- إن كنا نتحدث على سبيل الاختلاف، والاكتفاء بالتسليم بالمعتقد، كما يحلم المسلمين بموتاهم منعمين في الجنان، يرى النصارى موتاهم ربما في الجنان ذاتها، موتى اليهود أيضاً يرونهم هناك. هناك من تتكلم ملامحهم عنهم، الديانات أو الاختلافات الفكرية محض اختلافات فتت شملنا، إنهالإيمان، التصديق الداخلي، إيمان المعتقد رغم سطوة المتعقد الآخر، إنه التسليم للغيبيات، كل الدروب تؤدي إلى الله فلم لا نسكلها!

- أنت تساوي بين الأديان؟

- بل نتوحد في البشرية.

- إذا حق لي أن أسأل هل ترى أن الإنسان فكر أكثر مما يكون متعقد؟

- إني أرى الإنسان مذهب.

- كيف؟ يبدو أنك كاتب رمزي حتى في ميولك للسردية؟

- لست كذلك، بل قصدت أنه ما الذي يفعله إنسان بشري مثلنا لينقل اسمه من عصره إلى تاريخ بعنوان كل زمان تبعه. ماذا فعل الشافعي ليتحول من بشر إلى مذهب؟ الإنسان عبارة عن مجموعة أشياء مبعثرة غير مفهومة،

طفل من الداخل، رجل في التصرفات، شاعري مع الأوجاع، فكر يقود مسرى حياته، يتغير الناس مع مرور الأيام منهم من يحتفظ بطفولته ويتجرد من المعالم الأخرى تماماً،منهم من يمتلك المشاعر فتحكم فيها على قلبه حتى يتورط بالحب، الحب اللامتناهي، آخر يكون عقلانياً بحتاً بحيث يرى المشاعر غباء أو خيانة للطبيعة كما قال هتلر، يجب أن تكون متوازناً كقافية العاشق، التوازن الذي شبه استحالة تحقيقه كسلام بعد حرب.

- بعد كل ما شرحت لم أفهم رأيك تماماً في كون الانسان مذهب ؟
- قلت: الإنسان مذهب، لأنه من يذهب بنفسه حيث يشاء، يصنع ما يشاء، يحب من يشاء، ولأنه أيضاً يعتنق المذهب الذي يشاء.
- من مستوى تفكيرك لا يشكك أحد بنجاحك، ما هو سر نجاحك سيدي؟
- لن أقول القسوة، سأعتنق مصطلح القوة، إن الحياة تحد، كسبت، وأزهقت كرامتها عدة مرات.
- ما هو عنوان روايتك القادمة؟ وعم تتحدث؟
- سأكتب رواية أتكلم فيها عن أسلحة الدمار الشاملة، أناقش فيها أيضاً موضوع الإرهاب والمساجين، سأتحدث عن الاستخبارات الأمريكية، أحلل أزمة النزاع مع اليهود في الشرق الاوسط، فأكتب عنهم رواية تدعى "الدمار".
- إذاً الدمار! ما أكثر ما يمكن أن يدمر الإنسان برايك؟
- المسؤول عن دمار إنسانيتها هو نحن، الخضوع هو السبب. إن كنت حياً فأثبت وجودك، أطلق رصاصك على أعدائك، اكتب ضدهم، ارفع راية نفسك أمام نفسك، غنِّ لنفسك كثيراً، تذكر أنك الأقوى.

- سؤالي الأخير: ما هو أكثر ما يؤلمك؟ وما يمكن أن يؤلمك؟ أن أكون أحياناً في أمر محتوم يجب أن نكون فيه قرارا.
- ما يؤلمني حالياً، هو ضياعنا فكرياً وتسليمنا للاشيء، حتى أصبحنا فارغين تماماً من الداخل والخارج، نقلد كل ما نراه بحثاً عن السعادة، نظن أنه الثواب، وهو غباؤنا، لم لا نكون نحن، فقط نحن، كن قوياً، شديداً، لن تتألم.
- شكراً لك على آرائك المميزة نتمنى من الله كل توفيق، نحن بانتظار روايتك على أحر من الجمر.
- العفو.

رحل عن المذياع، وترك صوته داخل أحشائي، كم رغبت في استحضاره ليجيبني عن أسئلتي تجاهه، كم هو جنون أن أطيل التفكير بإنسان يقول لي بدون صوت لا تقصي شعرك، ويقول لي على الملأ، كوني قوية، وبأعلى صوت، ثم إني اعتبرت كلامه موجهاً لي، لمَ؟ الورود حتى لم تحمل ورداً أحمراً، ضعيفة جداً، قوية فقط عندما أراه، أجبر نفسي على القوة، لأريه أن نظراته الحارقة لن تؤثر علي، وأني تجرعت من دمه، قوته، بعد أن سمعت ما تحدث، أدركت أن طريقته للتعريف عن نفسه كانت مختلفة، أنا الكاتب المثبت وجودي، الناجح على الملأ، القوي فكرياً، سليم من المشاعر الرقيقة، شعرت أنه يخاطبني لوحدي، رسائله الغريبة التي وصلتني خلال فترة وجودي في المشفى، اختفاؤه وظهوره فجأة، يعطيني الحب بقسوة، مثله كمثل من يملك الحب ولا يستطيع إعطاءه، قمة العجز، أن تكون قوياً لا تستطيع الحب، كل شيء يفعله تجاهي، تثبت لي أنه يحبني لكن بطريقة مختلفة، أنا أحتاجه، أحتاج بشدة من يهتم بي، لكن، اهتمامه بي موجود لكن غائب، يرغمني على حبه، ضعيفة أمام رسائله، عندما أفتح عيوني أراه ينظر لي، عندما تلتقي أعيننا، يحجبها.

يرسل لي كل مساء أشياء غرابتها تسحرني، ذات ليلة أرسل لي مقطوعة ظننت أنه جلبها من أحد الشعراء، بعد أن سمعت ما قال، تأكدت أنها كلماته كانت تخاطبني، بجنون عشقتها.

أحببت يوماً فتاة وهي نائمة، وعندمااستيقظت جرت بي كالهوس.

فتاة تحمل شعراً أسوداً يشبهك لحد الاختلاف.

تبدو بسماتها ملائكية تجمع بين البشرية والسماء.

رغبت بان أراقص روحها، فكانت تراقصني وأنا أنظر إليها.

كانت المتعلقة في غيبوبتها وكنت المقتول بالتفكير بها.

أردت أن أخبرك.

أن فتاة مثلها تسلبني.

فتاة تجري في دمي فتبدل احمراره بياضاً.

تتلون أوراقي بحمرة شفاهها فأستغيث.

لكن سباتها ظل طويلاً طويلاً.

كأنها الرمل يتوسد بحراً.

وآه كم أنا محتاج لعشق أبدي.

يبدو أن سباتها أيقظني بكِ.

أرغب في أن تستيقظ من دوامتها لتدخل دوامة أشعاري.

هلا غنيت لي، فصوتك أحب ما سمعت.

سيوقظ غيبوبتها، ماذا تعتقدين حتى الأصوات تغني!

صدام

بيروت

أجبت يومها، أعتذر لم أفهم، فقال لي: فقط غني. وأذكر أني غنيت كثيراً دون أن أجرؤ فأقول له: إني نفذت أوامره. يملي علي أوامره بحزم ودائماً أخضع، أنفذ عكس ما ينصح، بعيداً عن ضجيج الأغاني الرومانسية المفتوحة بمصراعيها في حنجرتي. أخشى أني أحبه، وأن حبه غريب يجعلني أجد نفسي، يقترب مني بطريقة الابتعاد، فيترك ما بين مسافة مفتوحة فيها حواجز، عوائق، متاهات، أسئلة عندما لا يرغب أبداً بأن يجيب عنها، يفلت فيها الذئاب والطيور فأحيا طريحة تساؤلاتي، هل

نظراته عادية أم أني أراها حباً لحاجتي له، أيعقل أن يكون اهتمامه بي مجرد إحسان.

ضعف خالتي ومعرفة قصتي، حولت قسوته لرجل أقل قسوة، يرى فيني البراءة فيتحكم فيها عله يتجرع من نقائي الرحيل عن قسوته، أيمكن لمزيج من الشك واليقين أن يرتب اسمه فيحفره مخلداً في قلبه.

خرجت من المشفى لبيتي بعد أن اصطحبني وخالتي بسيارته للبيت.

اشترى لي خلال الطريق قلادة فيها نجمة، وهبني تلك، وأخذني مني، وعندما أضفت شكراً لم يُجب.

عيناه شكرتني، فشعرته يصارعها حتى غلبته، فكان طوال الطريق يحاورني، كلمني كثيراً، تحدث لي عن حجم حبه لي، كم يحتاجني، كم أنا فائقة الجمال بالنسبة له، كم أحببت حديثه وكم كرهت صمته.

ترجلت من السيارة فشعرت أني أمتلك الكون حين أمسك يدي ليساعدني للوصول إلى البيت.

لمسة يده ضمت الكون باتساعه درجة درجة، أصعد وإياه الدرج، ليهبط بين يديه قلبي، شاعرةً أن نهاية الصعود ستكون سلالم توصلني للسماء، أرقص وأجلس معه على هدبي غيمة ما، نؤسس حياة فوق العالم.

فوق الموسيقا، فوق دوران الكرة الأرضية.

لو أن الطريق يمتد ويمتد ويمتد حتى لا أصل للبيت.

لو لم يمتلك سيارة، ومشينا سواسية للبيت، أو لو طلب لي سيارة أجرة، وظل جالساً بجانبي لوضعت رأسي على كتفه وتخيلت كثيراً، هذا الكم الهائل من الأحلام يعتبر نسبياً من العيار الثقيل، ثم إني ما فهمت يوماً كبرَ البشر، أولئك الذين

يرتادون السيارات، ينظرون للمشاة نظرة الضعف، وأنظر إليهم نظرة الشفقة، على حدود التباين هم مقيدون بالمقاعد، أسيرو أحزمة الأمان، تمتلك الحافلة حق موتهم، فتقض مضجعهم على حد سواء، المشاة أحرار. أحرار في قيادتهم أرجلهم، في كسر أحزمة الأمان، في النجاة من حوادث حافلاتهم.

أيعد حبي لك، حزام الأمان أم حادث سير؟

أخشى أن تكون أنت السيارة والماشي، فتسلبني كل شيء حتى محركات عقلي ونوافذ مخيلتي، ووقود حياتي، ورغم ذلك لا زلت أخشى أن اصطدم بك فتفتت روحي هباءً، حتى دون أن تلمسني، قبل أن أدخل غرفتي همس بأذني، ستغدين نجمة كالتي تضعينها في عنقك لكن احذري من السقوط، تدرج نحو الباب ثم نظر لي وقال بقوة: لن أسمح لسقوطك أن يدوي حتى يفجر بي ثوراتي، إن اقتلعت نجمتك من عنقك يجب أن تمنعيني من الغوص بك أكثر.

أزيز سقوطك سيحطم شعرك الأسود فيصبح أشقراً، لا طعم له، احتفظي بنجمتك سيضيء لك الأنوار حين الظلام يكتمل، لكن احذري سترين وجهي عند لمحها، عالق أنا بك، كحلمك، وكأني أنا الحياة، ابتسم بثقة ثم رحل.

دائم الرحيل دون أن يترك لي حق الرد.

أين هي تلك الكتب السياسية التي كتبها؟ تأتي لتصفعني، الم يدرس الفعل ورد الفعل أم هي عادة السياسيين هكذا.

عندما تطلق الصواريخ ألا يتبعها الرصاص؟

أراه منتظراً تحليق العصافير بعد أدخنة الحروب، مقتحم وطني، وطني الداخلي، يحكمه ويجعلني عبده، على سبيل الأمل، يجب أن أصغي للنصف المليء من الكأس فأتشبث بحلمي وأسعى للنجومية، بعد شهر من بقائي في المشفى، أنا

وحيدة في البيت، لأن خالتي عند ابنها تنتظر استيقاظه من غيبوبته، أن ترأف بقلب أم من الحمل منهك، فتبسط سطوتها على روحه، تدب به الحياة، أتمنى، أمل تجالسني، وصلت اليوم مع صديقتها جورجيت، أمل أتت لتخفف عني فراغي وتهرب من بذخ أسرتها فهي تعاني من انفصالهما مؤخراً، سئمت السيدة ليندا من أحمر الشفاه على قمصان زوجها، أما هو فسئم من سأمها مما يقترف من خطيئات، كانت عاقراً، فأنجب من محرماته عدة أطفال قذفهم للقدر، حتى وصل به الأمر أن يضاجع موظفاته في الشركة ويرقيهم فأحال الأعمال التجارية غشاً مباحاً.

دائما ما كانت تتجاوز السيدة ليندا وتهتم بالأمور الإنسانية، كالمياتم ومنظمات وحقوق الطفل، لكن ما جعلها تنفصل عنه هو رغبتها في الحرية، السيد معتز كان ثريا تزوجها لجمالها، وتردد على جميلات كثر بعدها، وضعها في منزله لا لأنه أحبها بل لأنه أحب يتمها الذي يشعره بأفضاله، دائماً ما يهددها بالطلاق، لكنها لم تملك مكاناً تذهب إليه، كان يأتيها بعهره فترضى، لأن المنافي اتسعت بها أعمالها جمعت شيئاً من المال وانفصلت عنه، وتسكن اليوم مع أمل شقة في دمشق.

غريب هذا الوجود أغلب الناس يحلمون بالأموال، وحين يصلونها تصبح شؤماً.

المال نقمة إن لم تحسن استخدامه، قرار الطلاق أصعب بمرات من قرينه الزواج، الزواج بداية يظنها المقرر لن تنتهي، أما الطلاق فنهاية ستبدأ بلا بداية.

القرار السليم للسيدة ليندا هي أنها احتاجت مشاعراً، وليس شراء ما يشعرنا بالسعادة، قصصت عليها حكاية صدام، والتي أراها رواية مفتوحة النهاية، رأتها أمل وجعاً لقلبي، كلماتها تضرب التناقض بي:

"إن مدعي النجومية لن يعرقل سيره لمجرد رؤيته شهاب! من يحب سيجعل حياتك بيضاء فيه وبه، بالمقعد المخدوش من عشقكما، إن الحب سائل غريب تفرزه لنا المصادفات فيسكب فينا كل شيء، نرى الألوان شخص واحد، الأشياء يجب أن

تحدث من شخص واحد، المقطوعات تغني فقط له هو اللحن والصوت وحتى الجماهير، فكرة الحب ليست بخطيئته بل أن تحبني هنجعياً قبول على الاندثار،

سيقول عن دموعك حماقة بينما هي رحمة، لتكسبي الفوز خوضي النزال، لكن مع خصم يحمل أي شيء من طباعك، سقوطك أمامه قمة المأساة، أن تقيدي حياتك برجل لا يريد حتى سماع أي صوت بعد صوته ثم من ذا الذي ملكه حق؟ اغتيال ردود الأفعال وأي وجهة نظر يكتب به إن كان فقيراً عاجزاً على نقاش حتى من يحب؟ الثقافةهي احترام الجميع، بأفكارهم، بآرائهم، بمعتقداتهم، تقبل الاختلاف الفكري والجنسي والمعنوي، إن سلطة القلم المهيمنة ينبغي أن تكون في إنسانٍ، ليس في متسلط!

فضيلة الاقناع بحد ذاتها القوة، وليست القسوة هي برهان على إثبات الذات.

قدرتك على نقل أفكارك السليمة إلى أشخاص، فتغير مسرى حياتهم للأفضل هو النصر، النصر المعلن على ذاتك، ونفخ رماد المستحيل بعيداً.

إن الموهبة إن تواجدت فيه، قد بلغها سن يأسها وشاخت، فدفنها شابة حيث يكتب عن العالم كقائد! إنه الخاضع أمام قلمه وكم من بطل تمرد على كاتبه فخرج عن مسرى الرواية وألف رواية جديدة صاغها من بنات أفكاره، أليسار، لا تخضعي لشيء، لا ليأس ولا لنكبة ولا لتهجير، ولا لعقد أشخاص، ولا لحب.

إن الحياة مستمرة لم توقفين شجرة أحلامك عند نافذته؟ حتى هو لم يكترث لفتح النافذة ليطمئن إن كنت تحتاجين أن يسقيك مشاعراً رقيقة مغلفة بالرحمة، لا أن يعطيك مشاعره بقوة، أنت صاحبة صوت فاتن بقضية حق لن تموت، حتى عندما يعود الحق، لن ينسى أحد، لأن عودتنا ستحتاج على ما يبدو، الكثير من الأصوات، الرسمات، الروايات، الكثير من القرارات والعزيمة، لا تحلمي بأن تصيري نجمته، فيبتاع لكِ ذات يوم نجمة أخرى موجودة في محبس للزواج، بل كوني ملاصقة

للقمر، سينظر إليك كثيراً، يتأمل، ويطيل التفكير في كيفية وصوله إليهِ وقد لا يصل أيضاً!

أليسار، فكري بمنطقية أكثر، في دوامة كلماته تركتني أمل حائرة، صدام وهي والحياة أقوياء، وأنا وحدي الضعيفة، كل منهم يملي علي تصرفاته ويرحل ويترك مني فقط الإصغاء لنبرات صوتهم الباقية مذ رحيلهم، وحده الحب يفعل بنا هكذا، يتركنا في مدينة فيحول ما بين الامتلاك والفقد، بين العطاء واليتم، أي طاقة تلك التي ترتاد عاشقاً، فتحطمه إن رحل عن خياله، لو أني سافرت في البحر يوماً ما لكنت استطعت الآن أن أجد أجوبة مقنعة، كنت سألت الامواج عن أفكار من اعتلوها، الأسماك حيث تؤكل من الأقوياء، نشوة انتصار الحيتان، الأصداف، الغارقين في القاع، المهاجرين الخوف من غدر الأمواج، حريق الشمس بدا لي أن رحيلي إلى فراغ محاط بالمياه، كان أجدى.

مضت الشهور تحمل قلبي له، بعد أن تحسنت صحتي توجب علي أن أعود لدراستي، أصبح صدام متماشياً معي كالظل، بعد مرور ستة شهور من معرفتي به توافدت المشاعر داخلي لكن كبحتها، أحسست معه كل تفاصيل الحب دون أن يقول لي أحبك، كان يقولها بكل أفعاله، بكل حركاته، بكل تصرفاته، اللامحسوبة، الخارجة عن نطاق فكره العسكري يبدو أن حبي أنهك داخله، وقود الدبابات، وإنزال الطائرات، عندما كانت تقصف مشاعر الحب التي لطالما حاول وأدها ولم يستطع بياض فتاة مثلي أقوى بكثير من أن يستوعبها سياطه، بدأ يكتب روايته الجديدة ولكن غير اسمها من الدمار، إلى الدمار والحب، أيعقل أن حبه لي قد أحال الدمار عشقا؟

وما داخله؟ يعلو صوت خيالي، لأول مرة صدام قرر أن يكتب في روايته شيء عاطفي، فصور قصة حب بطلتها تشبهني، بكل ما كتب شيء فيها كان يقرؤني،

سألته مرة وقد أعلنا حباً لبعض دون أن نفصح، عيوننا وصوت فيروز فقط من تحكموا بالموقف:

- لم لم تتزوج حتى الآن؟
- منعتني حياتي العسكرية ودراستي السياسية من التفكير بعواطفي، ولو صدف وقتاً لفعلت.
- ما صفات فتاة أحلامك؟
- بيضاء، رقيقة، وجنتاها حمراوان، شعرها أسود، طويل، تشبه أحداً أعرفه.
- ألم تلاحظ أنك تحدثت عن الظاهر وتركت المضمون؟
- لاحظت، قلت ذلك لأستفز الفكر فيك، يجب أن أعلم ماهية تفكيرك صغيرتي!

أجبته يومها بقهر لست صغيرتك.

خلته يضربني، يمسك مسدس كلماته يصوبه لقلبي يقتلني. متعمداً، يرشق مصطلحاته اللامحسوبة عنوة حتى يخلق بداخلي الحالة الشعورية بأنه الأقوى، تركت الطاولة يومها لصداع رأسي، مغادرة المقهى تاركة إياه وحده مع صوت فيروز مقعدي الخالي وهتافات انتصاره الجديد، هي حرب معلنة علي حسب ما كنت أراها، الحب بدافع الإخضاع ولطالما خضعت، المرأة كائن لطيف جداً، ألطف من وردة حتى، يخدشها أي شيء، الرجال يدركون تماماً أن جبل المرأة من عواطفها نقطة ضعفها، وهو سر قوتهم.

إن قصائد قباني التي أبهرت العالم لم تكتب إلا بغرض جذب مشاعر فتاةٍ ما، بالتالي، محاربة الرجال لكتابات مستغانمي دليل على قوتهم ورميهم مشاعرهم إلى أبعد من مدى ليلكي واحد.

لم تزل تلك النجمة معلقة في قلبي وصدري إلى جوار قلادة أمي.

استيقظ سليم من غيبوبته اليوم، سعيدة أنا باستيقاظه، خالتي تملك الكون، تلك هي الأم، تعطي دون مقابل، تتمنى لأولادها كل شيء، فتمنع عن نفسها كل شيء، صباح الخير ماما أردف سليم، صباح الخير ولدي أجابت باكية، ماذا حصل؟

لم يجب أحد، صمت قليلا ثم بكى عندما رآني، تحدثت معه السيدة ليندا: بني. خفت صوتها قليلا حين اعتلى الموقف صوت بكائه، لا تبك. وضمته واستمر في البكاء، قالت بحنو الام: ليس المهم وجود الخطأ بقدر اهمية وجود الصواب. خلق الله الموت لكنه أوجد الحياة أولاً، حين يبكي المرء يتطهر من الداخل أما حين ييأس يقتل ذاته مرتين، مرة لاستسلامه ومرة لعجزه.

بني إن الله يلوم على العجز، لو استسلم المخطئ لخطئه لما تاب الله عليه، كانت تتحدث وكان يبكي، لم نؤمن بالرحيل ونحن باقون.

لا يرحل الانسان ساعة خروج روحه، بل حين يرحل تاركاً وراءه أحلامه ملقاة على عاتق الضعف. ليست القضية في الدمع بل في مدى سيطرتها علينا إن تكبلت

رمال الأرض، وتجر بك نحو مقبرة لتنبش قبرك وأنت البقاء حين غيابك ستنقص الكرة الارضية نجماً، المرض النفسي ليس عارا بل عدم الاعتراف بالواقع المصيبة، محاولة الخلاص من المشكلة عبر الاعتراف بها شرف، كثير منا يواجه أمراضاً نفسية منها: الكذب، الغيرة، الحقد، الحزن.

كل أمر يتعاظم فيختل توازن الشخص، يسمى مرضاً نفسياً، أتدري حبيبي في الدول الأوروبية يذهب الأشخاص كل أسبوع إلى مريض نفسي يتحدثون ويبتسمون ويكلمون زملاءهم بذلك دون خجل، ما العار في أن نتحرر من مخاوفنا، أمة عاجزة لا تلد إلا حلماً عصياً.

تعال نذهب الى الطبيب لتعود لنا، سنكون جميعنا معك، وضعت قبلة حنونة على جبهته فصمت وهز برأسه، أمل وقفت قبالتنا وابتسمت للسيدة ليندا كثيراً، السيدة ليندا مع أن حياتها قاسية، إلا أنها جلبت الحب من بين الأشواك وزرعته في كل قلب رأته.

أمل محظوظة لوجودها جانبها، كم تمنيت لو أن لي أما، وطناً أعيش فيه، أو أماً حقيقية تشعرني بحنانها وأهديها كل عيد، كانت السيدة ليندا لأمل كل شيء، أما أنا، صدام كان البديل الوحيد لي عن وطني، أمي، أخي، دراستي، يبدو أنه يسبح تماماً في قصتي ببراميله المتفجرة، ثورة صوتي بدأت تسطع، فطلبت المشاركة بعدة مسرحيات سورية غنيت فيها للإنسان والسلام، وأنا التي تكبل الحرب أطرافها، بدأت أثبت نفسي يوماً تلو اليوم، أغني، قصائد أمل وألحان جورجيت الطيبة، بعض كتابات أخي، أعلن الثورة ضد اليهود، أدعو لطردهم من قدسنا، أحارب التخلف، أحاول كبح الظلام، أكثر من آثار استيائي هو رفض صدام أن أغني له شيئاً قال لي بحزم:

- إن كتاباتي لا تغنى، ما يُغنى هو الأحلام المعجوز عن تحقيقها، أما أنا فأضرب الأحلام ضرباً مبرحاً. أفرض الوقائع أزيل الخيال، لن تغني ما أكتب، فواقعي فوق خيالاتك، أمسك يدي شدها ابتسم عندما رأى دموعي، ورحل.

لم أنم ليلتها وأنا أبكي، أبكي، من دماء جمعتني به، من حياة جعلته يخدعني هكذا، من حبي الكبير له، حبي الذي فتحت الحدود حتى مرت عواصفه.

دعاني في صباح اليوم التالي لسهرة فرفضت تماديه فاق الحدود، فقررت أن أكون أقوى.

أروع الأشياء تلك التي يقدمها القدر لنا خلسة. آمنت بها عندما أحبني صدام، بأن اشترى لي استيديو خاص لتسجيل الأغاني، يومها انتظر عودتي من الجامعة وأوقفني، طوال الطريق ساد جو من الصمت المعلن بيننا، خاطبت الأشجار كثيراً، شكوته لها، وحده الوحيد، التائه في أكثر من وطن، أكثر من اسم، من حلم، وأكثر من شخص من يخاطب الجمادات، أيعقل للسماء مثلاً أن ترد علي أن توسدت الأرض تختاً، والتحفت الزهور فرشاً، خوفاً من الفاجعة، بقيت أصدق بها أبكي لها عما يحيل بي، وصلت يومها لباب الاستديو وأعطاني صدام المفاتيح وابتسم كثيراً وقال:

- هذه سماء أحلامك يا نجمتي.

حقق لي الاكتفاءات جميعها، تحولت مشاعري من حزن منه إلى جنونٍ به، عطاؤه كان رائعاً، بخاصة أنا لي استديو خاص بي أسجل به دون أن يمنَّ علي أحد، بداخل الاستديو تصميمات تشبه ما أحب، صدام يفهمني كثيراً، الاستديو قالب الحلوى، زينة وبوالين، ألوان فاتحة، فرقة موسيقية في الداخل، وكأني أحلم، لكن هذا واقع.

عندما وصلنا بدأت الفرقة تعزف ألحاناً رومانسية، صدام سجل صوتي ذات ليلة وأنا أغني أغنية رومانسية طلب مني أن أغنيها، سارعت فأثبت له موهبتي، وكنت في الحقيقة أثبت له حبي وكأني أحلف على المصحف، أغنية لماجدة الرومي رقصنا عليها بصوتي:

"الليلة عيشني حبك

الليلة نساني ع أيدك

وشمس بتشرق من عينيك"

مسلوبة تماماً أنا، أيمسك يداي ويراقصني وأشعر أني اليوم ولدت، ذاك الشعور الرهيب الذي يدعى الحب، الفرقة تعزف بهدوء، وطبول العشق تغرق في، صوتي يعلو ويعلو من المذياع وأنا أصرخ أصرخ من الداخل، أحبك، أضعت الجدران، البوالين، الزينة، أصبح كل شيء أنا وهو فقط، لوحدنا، نرقص ملياً دون أن نثمل، والقلادة تتحول من نجمة إلى كوكب، كوكب يصلح للحياة للحب، للعطاء، يصلح لكل شيء.

عدت يومها للبيت وكم تمنيت ألا أعود، عندما أوصلني للبيت قال لي: أعتذر إن أحزنتك، وأقسم لي لأول مرة أعتذر في حياتي، لكن رقة قلبك أقوى من حزني وضع يده على شعري وقال: إن فتاة مثلك تجمع ما بين الحياة وجمالها، لن يحزنها شخص سيزول مثلي، إن دمي الجاري فيك، هو لا شيء أمام روحك الجارية في يومياً، لا تحزني أرجوكِ.

تغيرت حتى عادته، هذه المرة انتظر مني الرد، أضفت شكراً لك على كل شيء، عاجزة عن وصفي سعادتي بك أدعو لك بالسعادة في صلواتي، أنت دائماً في

فكري، بحق شكراً، ثم توجهت إلى البيت بعد أن رأيته صغيراً، الكون واسع، كبير، لم لا، فأنا عاشقة.

وكل يوم يمر بي معه أشعر بعاطفتين مختلفتين، إن الوقت يمر بسرعة البرق، وآخر يشعرني أنه أبطأ ما يكون، نحن بحاجة لأولئك الأشخاص الذين يعطونا هذه المشاعر، سرعة الزمن وتباطئه، صدام اختزل كل شيء، أشعر بسعادة غامرة تملؤني عندما أذكره وهل يغيب عني، رجولته، شعره الأشقر، بشرته الحنطية، عرض منكبيه، طوله، صوته الحازم، قوة شخصيته، أريده هو، ولا أرغب بأحدٍ سواه، أتمنى من الحياة أن تهبني إياه، كما وهبت لي موهبة الغناء، أتمنى أن تهديني موهبة البقاء.

حين رمى نفسه في النار لينقذها قالت له

أتريد أن تثبت لي أنك مجنون

قال لا

أردت فقط أن أخبرك أني أحبك حتى الاشتعال

أدهم الشرقاوي

أليسار

دمشق

في زيارة إلى دمشق ذاهبة أنا، للتنسيق مع أمل لحفلة موسيقية جديدة، قررت البقاء معها في بيتها مدة أسبوعين حياة تملؤها الرفاهية، في نهر البارد طالما تقاسنا الفقر سوية لكن الرحيل غير كل ذلك، الزمن جعل منا أكثر فقراً وجعل منها غنية تعطينا!

أليسار، اسمي الغريب الذي لم أدرك يوماً لمَ أبي أصر عليه، كان يقول لي دائماً أني عندما أكبر سيقول لي لم أطلقه علي، وعاش يتمي ممزوجاً بجهلي.

في مجتمع الشتات الفلسطيني، كل شيء له رموز، السلك الفلسطيني، صورة قُرانا المعلقة على الجدران، خروجنا في المسيرات، وهتافاتنا، حتى أسماؤنا لها رمزية!

أمل صديقتي بعد أن ترعرعت ربتها أسرة شامية جمعني القدر بها في مجالات الفنون والإبداع فكانت كاتبة كأخي، وكنت أجيد غناء أفكارهم، أي هبة تلك التي تجعل الاشخاص الذين يملكون صوتاً فاتناً يغنون أفكار غيرهم، فيشدون الناس إليه، ويكسبون الشهرة، لم أُجد الكتابة يوماً ولا الرسم، حاولت أمل أن تقنعني كثيراً في أن أكتب ولم أقبل، الكتابة تحتاج إلى شخص عميق، صادق، يستطيع جلب مورثات الانفعال، وتسيير الأمور، وكتابة السليم منهما وتصويب الأخطاء فينا.

والرسم يحتاج لفكر مبدع يجعله يتصور الأفكار بشكلٍ واقعي يسقط الألوان عليها وكنت مؤمنة أن الله أرسل لكل شخص موهبة فلم التطفل على الأخرى؟

بصوتي غنيت منذ طفولتي أيها المارون، شعب مثلي يحمل هوية اللاجئ يجب عليه أن يستغل موهبته لطرد انعزاله، ومحاربة لجوئه، أن تكون لاجئاً، كأن تكون منفياً لأرض تتسع لك، سيبقى داخلك شيء ما ناقص، ستتزوج ولن يكفيك،

ستواجه أشخاصاً جددا ولن تشيع رغبك وستبحث عن كل أسرار الوجود، وكلما فعلت شيئاً من ذلك ستذكر ما ينقصك للوطن، لن تجده في تلك الماديات، الوطن: أحاسيس صادقة، تغني بتبجيل لم يكن بيدي حق الرجوع لأرضي فلسطين لكن بيدي أن أغنّي كلمات تتحدث عن شوقي لها، سيصلها صوتي، وسترد علي مآذنها، في الواقع، أنا لن أعيد وطن بأغنية، لكني أحيي في النفوس الذكرى فترة وجودي في بيت أمل كانت ممتعة.

ذهبت معها إلى الميتم فنحن سنتبرع للميتم بما سيعود علينا من أرباح يخفيها من حفلتنا، تعرفت على جيرانها وعلى أصدقائها، وياسمين الشام الفائح من أهلها كان أهم الحاضرين، في حضرة الشعب السوري الكريم ضيفة دمشق أنا، طيبة قلب أهل حمص مع كرم أهل دمشق وسواعد أهل الجزيرة السورية، ومزارع أهل حماة الأكارم مسقية من مياه أهل الساحل السوري العظيم، الخارطة السورية، بشعبها الطيب تغرقني عشقاً، فأسجد شاكرة لله أن جعلني أحيا في بلد اسمه سورية، أتعامل مع الشعب السوري، فأحبهم ويحبوني، ونخدم القضية معاً.

سوريا كانت دار ضيافة للجميع كدولة وكشعب، فتحت أبوابها للفلسطينين الذين رحلوا عن إسرائيل، للعراقيين الذين هجّرتهم طغيان الدولة الأمريكية، وأخيراً اللبنانيين.

إن الملائكة لتبسط أجنحتها على الشام وإن الله تكفل بحمايتها، فشعرت بالاطمئنان لبقائي في بلد تراقبني عيون ملائكة الرحمن.

الشعب السوري الذي استضاف الجميع سيحمل الله بإذنه الفرج على أرضه، وسيحمل حزنه فرحاً، وسيعود ليضحك من جديد، فأرض الخير لن يصيبها إلا خيراً، بين أشجار الياسمين الشامي تمشيت مع أمل، أراقب قمر الشام، روعة نجومها، خارطة العز في الأموي، فخر صلاح الدين في مرقده، سوق الحميدية بأثريته، كلما رأيت دمشق زاد عشقي لكل ما يتعلق بها، الشيخ النابلسي بعفويته.

دمشق أيا مدينة سكنت في قلبي وتربعت عرش كلماتي فغنيتها دون أن أتردد، اقذفي من ياسمينك قليلاً على بلدان العالم حتى يدركوا معنى الجمال.

لو أن كل الأماكن سوريا، لما كان هناك معنى للمنافي، فالوطن يغنيك عن كل أوجاعك، في دمشق عندما يطير الحمام يبني عشه على أحد شبابيك، البيوت السورية وتطعم الأم صغارها من فتات الخبز الذي يصنعه العائلة، شعب كريم على الحيوانات كيف لا يكون رحيماً على البشرية؟

شكراً سوريا على الحقوق التي أعطيتها للفلسطينيين من حرية في الأعمال والدراسة وحق الامتلاك.

عندما يتحدث عن سورية يحسب لانتهي الكلام، فسورية لن تستوعبها كلمات ولن تكتبها رواية، سورية أعمق من كل الكلمات، الحروف، الأصوات، التشكرات، سورية اختزلت كل شيء دون أن يكتب، كم أحبك وطني الثاني سورية، كم أحبك.

ذهبت مع أمل لعيادة طبيبها الموجود في حي المهاجرين الدمشق، كانت تحبه كثيراً (د. باسل جندي) تعتبره دليلها، تواجد معها في كل مراحل حياتها. بسبب

وضعها الصحي السيء، تحديها أوجاعها أقوى تحدٍ رأيته في حياتي على الإطلاق ووصلت للمرحلة الجامعية، قوية الشخصية، تحيا لهدف ليست فارغة، حازمة لا تحب المرح ولا المزاح، تأخذ الحياة بجدية وتقول عنها مسوؤليتها منطقية لأبعد الحدود، عادلة.

طبيبها كان مزيجاً من التعاسة والفرح، فرح لبقائها جانبها، تعيس لأنه لم يستطع أن يقدم لها شيئاً، إرادة القدر تفرض نفسها بفعل الخير كثيراً، إنساني لأبعد الحدود، كم هو رائع، فأصبح أمي كل شيء في الحب والعمل في جراحة الأعضاء لإعادة الحياة، ينزف دماً ليغدو بلسماً للشفاء، شجعني كثيراً، الطبيب الدمشقي ذاك أحبت الحياة التي جمعتني به تعلمت منه كثيراً، تعلمت كيف يبني الإنسان نجاحه من الصغر ويثبت وجوده فوق رغبة الجميع.

علمني كيف أجتهد لأصل هدفي، علمني أن أكون صادقة في كل أمور حياتي، إن الشرف ليس في الجسد كما يعتقد أهل الشرق، الشرف في الأعمال، في الأعمال المنزلية، في التعامل مع الناس، في قراءة القرآن، في الغناء والكتابة والرسم، إن الشرف في كل أمور حياتنا.

الإنسانية التي أعطاني إياها تعجز الإنسانية عن وصفها، لو تأتي الحياة حسب رغبتنا، سأتحداها كما نصحتني، سأعطي دائماً دون مقابل، سأحاول أن أكون شريفة في كل أمور حياتي، سأحاول أن أكون مثل الطبيب، يُسيل الدماء ليعيد الحياة.

سرد علي قصة جعلتني أفكر كثيراً، أشرد في مدى روعة تفكيره، تمنيت لو كل البشر مثله، لكانت الأرض سلاماً، خالية من الغبار والحرائق، بصفته طبيب، يستقبل جميع الأعمار، حلم الأطفال من صغرهم أن يكونوا أطباء في المستقبل، أضاف أن يوماً ما جاءته صغيرة ترغب بأن تكون ممرضة لتشغل دور الرحمة في مسرح الحياة

المتناهي، يتخيل الأطفال أن الحياة طوباوية إلا أطفال الحروب، يرونها في حلمهم الموت الذي يجب تحقيقه، أي رصاصة طائشة تلك التي يمكنها أن تحيل أفكار البراءة إلى رماد محترق، أحلامنا البريئة قد تتحول مع مرور الأيام إلى بقايا جثث لأفكار متخبطة، اشتهرت الممرضة كريستينا غليبرت بلعب ملك الموت حيث كانت تقتل مرضاها بحقن مخدرة كل مرة ليكون لها عذر في استدعاء حبيبها الذي يعمل في ثلاجة الموتى ليقلهم وتراه، أتراها حلمت من صغرها بالبراءة، بارتداء زي الرحمة كيف استطاعت دهس خيالها بهذه الطريقة، ما نفع العمل الفضيل إذا قام به شخص وضيع فعل به الفاحشة؟

ليست القضية في ما نحلم أوما يرتادنا من أحلام نحولها بقوتنا لواقع، القضية قضية شرف حتى في الشيء المخالف لآرائنا يجب أن نفعله بدافع الأخلاق، سطوة القيم في كل مكان لبلوغ هدف سامي، إنها الحياة السوية المكللة بالمبدأ.

لا زلت أتابع بتعلمي من الشخص الجيد، وإن كان مريضاً، ومحاولة نسياني السيئ، وأخذي العبرة في أن المرض ليس في الأبدان بل في القلوب مغلفة بالعقول، عقل الانسان في قلبه العقل أداة تبرر ما يؤمن به القلب.

سألته: أنت طبيب ناجح ذو شهرة، أما زلت تتعلم؟ ألم تصل حد الاكتفاء؟

أجابني: عندما تثقين بأنك وصلت كل المعرفة، تأكدي بأنك تخطين أول خطوك للعمى، لطالما تعلمت من الناس أكثر من كتبي، الكتب أعطتني نهراً من صفاء أعالج مرضاي، أما هم كشخصيات، لا وجود لمعرفة كاملة قد تكون بحتة لكنها لا تتم.

ابتسمت، وابتسم، لأساله هل الحياة صعبة أم مستحيلة؟

قال: إن الأشياء الصعبة تحتاج جهداً كبيراً، والأشياء المستحيلة تحتاج جهداً أكبر، فقط استمعي لهذه القصة:

السيدة رشا نجار، الإعلامية اللبنانية الشهيرة التي اخترقت جسدها ثمان رصاصات خلال الحرب الأهلية اللبنانية، التي وصفتها بالغبية، تعرضت لمحاولة اغتيال أيقظ الموت بها الحياة.... بعد ثمان رصاصات تحدت الموت وذهبت للمشفى لوحدها بصحبة المستحيل تنتزع الحياة من بين أنياب القبور. قامت ماشية تواجه خطر الاشتباكات لترد روحها بنفسها، فقدت رغبتها بالحياة عندما علمت أن خصيم الحياة أخذ منها زوجها. واستمرت بالكتابة له لمدة سبع سنوات، جلبت له مزرعة ورود يوم زفاف ابنتها ووضعتها على ضريحه المستعار. نبل خيانة الحرب سرقت منها جثته، حتى لم أدر إن كان إيمان الله أم إيمانها بالحب الذي جعل من الثمان مهزومين مرمين في قوافل النساء، أرقى درجات الحب الإيمان، لهذا نخاطب جلاله نعبدك حباً، ولهذا يقول الله إن من يحبه يجعل أهل السماء والأرض يحبونه، وإنما يحب الله من عباده المؤمنين، تحدت كل شيء فقط لتخبر زوجها بشجاعتها، فأشقى السعي خطاها، وأخذ الغياب منها لهفة الكلام بلوعة الفراق.

نحن نحيا ونكافح لأجل من نحب، ومن يخون يأخذ كل شيء ملطخاً بوحل مخازيه...

إذاً أنت تقول إن الحب ركيزة لكل شيء، صحيح فلم تجد الأحلام غائبة طالما أن الأحلام وليدة القلوب؟

لأن الحب إن لم يكبر هو في طريقه للعجز، ما محركات العواطف؟

العمل. الحكمة . التواضع.

فسالت متعجبة ؟ التواضع؟

نعم لم تستغربين؟ التواضع شيمة العظماء والاستهزاء أروع طريقة لإبراز الجهل. كتب حاكم فرنسا الظالم في يوم قمعه الثورة الشعبية التي أفصحت حناجر الثوار عنها. دون في مذكراته: ١٤يوليو لا شيء يذكر. كان يومها جعل فرنسا مسبحا من الدماء يسبح بها سكانها. فتح الرصاص فالمدافع حتى غطت الجثث الكثبان.

أمسك يومها الظالم ضحيته. شق بطنه بالسكين. تأكد من موته رمياً بالرصاص.

رمى به قصفا للجهة الأخرى من الكرة الارضية. علق جثته أياماً على المشنقة في الساحات على مرمى النظر. حرقه فنثر رماده لقاع البحر. جلب السنة جهنم ذوب بها جزء من البحر، رغم ذلك. كان قمع الثورة ولاشيء يذكر. تسخيف الأمور قد يدل على قوة. أو صغر حجم المفتعل. كانت صرخات التنديد تخيل إليه بالتمرد، وكانت في الواقع ثورة، ظنها عصياناً، وكانت انتفاضة، ثورة كسرت عرش فرنسا. وانتفاضة قلبت الحكم منكبا على وجهه فأخصعت الملك، وأرضخت مجلس الوزراء لرغبتها بالوجود.

أغرقت الفرنسيين بدماء ثورتهم، فرنسا انتصرت...لا تسخف أمراً... فيتحول صغر حجمه لأداة مجنونة تفعل أي شيء فقط لتثبت وجودها...هو الفقد، إذاً من يجعل الدم يسيل كالأحلام حين نحققها؟

فكرة ما يفقد منا عنوة. أشد إيلاماً من خياراتنا، بغض النظر إن كانت خاطئة أم سليمة... فمن فقد عينه بحادث قدر ليس كمن فقدها حين قاتل في الحرب. ومن أخذ الله منه والده بسكتة قلبية سببها السرطان، ليس كمن قتل والده لأنه منعه من المخدرات.

إن رسومات الغيبيات في أذهاننا تجسد أفعالنا على أرض الواقع، والتي تغذو محض أفعال شرسة أو لينة حسب الفاعل وردود المتلقي، لهذا الفكر يوجه حياة الإنسان وإنْ سيَّرها بشكل صحيح، فإنه يسير الإنسانية.

تلك فقيدتنا حاليا، امتزجت سعادتي بحزن فرحه، قاطع دهشتي وبحزن قال: دوامة الجهل هذه إذا لم تنتهي سننتهي. رغبتُ في تقييد الحزن الذي طغى على الحوار، سألته ما أكثر قيمة تؤمن بها في حياتك؟

–الفعل الطيب لا يُنسى، الكلمة المسيئة لا ترحل.

وعاودنا الابتسام، شكرته كثيرا وغادرت.

تعرفت أيضاً على ناطور البناية، يعمل في الليل حارساً وفي النهار سائقاً، لم أفهم، أشعر أن شيئاً ما يشدني نحوه، رجل قصير يدعى أبا حسن، لكن لا أولاد له ولا زوجة، كلما سألت أمل عنه، قالت لي بأنه رجل طيب يقال أنه لبناني الجنسية، لا اختلاط لهم به، لكنه يلبي جميع الطلبات إن استطاع، أمل تحبه كثيراً، فكانت تقول أنها تشفق عليه، أشعر أني أعرفه أو رأيته، عندما تقابلت معه أول مرة، حدقت به طويلاً وهو كذلك، أطال النظر إلي، ساعدني من أول وصولي في نقل الأغراض، رجل كبير في السن، ملامح الشقاء تبدو عليه، يسكن في القبو يقتات قوت يومه من عرق جبينه، إنه شخص مريح، شعرت بتعرفي عليه أنه مستعد لأن يعطيك أي شيء يمتكله، ينادونه "أبو حسن" واسمه الحقيقي: لم أعرفه، وعندما سألته: صمت، ولم يجب، وقال: نادني ما شئت من الأسماء، هذا حال البسطاء. هذا الرجل يساعدني في حمل أغراضي وأحاول مساعدته في حمل أعباء الحياة عنه.

تقربت منه، فأنا شخص عاطفي يساعد أي أحد، فطرحت عليه فكرة الزواج من أحد فرفض، قلت بأني سأساعد في المصاريف، فلم يقبل، يناديني يا ابنتي، منذ زمن

لم أسمعها من أحد: يا ابنتي، رغبت لو أرد عليه: آهِ يا أبتِ، لكن لم أجرؤ، أقوى من مشاعري قررت أن أكون مع مرور الأيام.

علاقتي بصدام تطورت حتى تورط كل منا بالآخر، ولم نعد يستطيع أن نعيش دون بعضنا، يوم الحفلة كان أول الحاضرين، صعدت خشبة المسرح بعد ثقة عمياء في ما أغني وكان يومها يوم الأرض الفلسطيني، غنيت لوطني كثيراً، مجدت الإنسان، طالبت بحقي كإنسانة ومغنية وطنية، غنيت للثورة والسلام، جمعت كل المشاعر في أغنيتي، غنيت ويدي تصعد وتنزل.

في الواقع لم أكن أغني للناس، كنت أغني لنفسي لأثبت وجودي، لأقول إني هنا أمتلك شيئاً لا تملكونه، هدفاً وقضية سأحيا لأجلها.

على خشبة المسرح تحقق العلم الفلسطيني، وضعت السلك على رقبتي وارتديت الزي الفلسطيني، كلمات رددتها: "يا أم العروبة، يا قدس الأقداس"، كفني عنكِ دموعك العارية، اخلعي رداءك الأسود ونكلي بهم، يا من اشتاق وحي لرؤياها، مدي لي يداكِ علي شعرت بدفء قبة الصخرة، منذ غادرتك لم أزل أصلي، على أمل صلاتي في الأقصى، أيتها المبتورة بفعل الخيانة، أعيدينا لكِ نضم فيك طهرا، وننفض الجراح عنكِ، نغوص فيك حباً، فكراً، شعراً، ونعانق فيك شهقات الثكالى.

عندما بحثت عن أسرار الكون وجدتها مختبئة في ليمونتك، سحر شطآنك، سرقته رقتك، أكتب إليك وأنا المنفي جسدياً، خليلك وحياً، صوتي محمل بوفاء يهز قضبان جلادك، عزي المشرف ورايتي المنضدة، وسواد ليل الظالم كقلبه، أنا العائد إليك، المقاتل في سبيلك أبداً، الشباب الناهض لأجلك، أيها القوم نهضة.

عائد إليكِ، أحضن حمضيات يافا في حيفا، أصلي في باحة قدسك، أزغرد على قيود شهدائك، أزرع الورود في خليلك، أجلس معك لأصبح خليل روحك، فأنت

سكنت بي كالروح، آهٍ يا فلسطين المتواجدة فينا عبقاً حرية أبية، سنعود إليك نحمل حساماً وبندقية، فكراً وثورة سنعود.

على ضفاف سحرك أغني، لأجل طهرك أنشد اليوم، أطلق نبرة صوتي فتقبل ظلمهم، أشهد يدي الحق وأسكني ماء على رصاصهم، آهٍ يا مطهرة، كم يحتاج استرجاعك إلى إرادة، أهٍ يا مدينة الصلاة لأجل طهرك، أصلي".

واصلت غنائي بشاعرية مع وقفة قوية، والتصفيق يعلو ويعلو، تحررت من كل شيء حولي حتى الجماهير.

وبعد انتهاء الحفلة الموسيقية تعرفت شعور الشهرة، وتذوقت إحساس النجاح، تلك الأحاسيس من أروع المشاعر التي قد يشعر بها المرء، من لم يجربها لمَ قضى حياته؟

تساءلت كثيراً لماذا الناس يقضون سنينهم في الفراغ دون أن يصنعوا لنفسهم شيئاً؟

صدام أول المهنئين بطريقته التي اعتاد أن يتباهى بها، فقد كان هو الداعم المادي للحفل، الذي تكفل كل النفقات، جميل عطاؤه المادي السخي، لكني لم أحتجه، لطالما احتجت أن يدعمني نفسياً.

إن مجرد أموال لا يمكن أن تجعل الإنسان سعيداً ولا سوياً أيضاً، وحدها العواطف النبيلة بإمكانها جعل الأشخاص سعداء.

قضيت أسبوعين رائعين مع صديقتي، مع جورجيت المسيحية المحبة، التي تسكن الطابق العلوي.

حضر الحفل سليم، الذي بدأ يتغير كلياً، فقد رأيته يذهب إلى أحد المياتم، يداعب اليتامى، أصبحت ضحكته كالأطفال بريئة، وعندما أناديه: هل تحسنت؟ يرد:

بل وجدت نفسي. كنت أبتسم، وأقول: الحمد لله. ليسألني: وأنت متى ستجدينها؟ أجبته: لم تقول هذا؟ ليرد: صدام كسر قلبك، لا جبره، ابتعدي عنه وغني.

حزنت منها يومها إلا أنه أردف: لأني أحبك أقاضي خطأك، إن موتي ساعدني لأصل حياتي، فلا تجعلي حياتك تقودك للموت، ويكون صدام قاتلك البريء.

وكيف لقاتل أن يكون بريئاً؟ فأجاب: لأن موت الضمير يخول البشري لقتل ولده دون شعور بالذنب. صدام ليس بلا ضمير.

صمت ورحل، وكنا نعمل سوياً في أحد المياتم، أمل وجورجيت جاءتا بعد الحوار، وكنت أشعر بالاختناق، فقالت لي: اذكري الله تجدينه في ضياعك، وطن وقفت جورجيت بجانبي في فرحي وحزني. كنا نقضي كل الأيام معاً، لم أكن أبداً تلك المسلمة التي تعصبت لدينها. فارتدت الخمار والكفوف. لم أكن أيضا تلك الراهبة التي وهبت حياتها للقدسانية، كنت أدرك تماما من أنا . أكتب لشيء وأغني لإنسانيته، أؤمن بديني وأحترم سواه.

رغبت في أن أضع المصحف فوق رأسي، وأن أحضن الصليب. كنت أبحث بفقدي عن كل شيء، كل شيء.

أشعل شموع الكنيسة وأسمع أذان الفجر. .عندما تكون قديساً أو مبدعاً ينبغي عليك أن تكون استغلالياً لكل موجودات الكون. ضوء الشموع. تراتيل الإنجيل. خشوع القران. نبل الحكمة الإسلامية مع محبة النصارى.

أن تكون إنساناً هو أن تتاقلم مع كل شيء، رسمات العذراء تحضن عيسى. وغياب صورة محمد الرحيم.

كل المسلمين يتخيلون محمد في أذهانهم، لكن محمد معجزة، لن يتخيل نوره أحد، هو أعظم من خلق من الأنبياء والرسالة الحقة.

إيماني بعقيدتي لا يعني أن لا ترى سواها، نحن روح الله على الأرض، وإن اختلفنا فإننا ننتمي له وحده، وعدم احترامنا لبعضنا يعني عدم احترامنا للذات الإلهية كما كنت أرى، لا علاقة لنا بجهنم إن دخلها سوانا، أو جنان نجتمع بها، القضية قضية إرساء احترام وتقبل الآخر مهما بلغنا من اختلافنا نلتق في أنسيتنا، قبل أن نكون مذاهب وطوائف نحن بشر.

تملك جورجيت روحاً رائعة وفكراً خلاقاً، برفقتها أمل استطعت أن أخرج على الملأ، أثبتُّ للجميع أني أمتلك موهبة نادرة، أدرج أفكارهم مع طبقات صوتي، رحلت عن دمشق بعد أن كانت تلك الأيام أروع أيام حياتي، ودعت أمل وجورجيت والعم أبا حسن على أمل لقاء جديد، العم أبو حسن قبل أن أرحل، ابتسم وقال لي: متى ستعودين؟ أجبته: لا أعلم؟ لم؟ قال: سنشتاقك. لم أدر لم أجبته: وأنا أيضاً. قال: كوني بخير يا ابنتي. قلت: كل تلك المأساة يا أبتِ، لن تمر دون أن يقطّع صوتها حبالي الغنائية فأشّذ عن العزف مرة أخرى. قال: يا ابنتي، بل سيقطع شيء منها ليجهض أحلامك. كوني من شظيتها الأخيرة ركيزة للبقاء. فتخلّدك، بداخلي شيء يشدني إليه، أود لو أقول له: من أنت؟ لكنه سيجيب: لا أعلم. علنا نشترك في أن كلينا لا يعلم من هو! يشبه شيئاً ما في خيالي ليكون صورة رائعة لوهمي.

ودّعتهم ورحلت، ابتسمت للجميع، إلا هو، ضحكت له عيوني، وكان قلبي من الداخل يركض مسرعاً إليه.

عن أوّل القبلاتِ السّرية

على جبينِ فدائيّنا الأول

و عن آخر السّكاكينِ بصدره الأعزل

لاجئاً كانَ هذا العاشق و لاجئاً بعدها

لا يسافرُ العاشقون مهما ابتعدوا

و كُلما ألفوا من طريقهم رصيفاً تصدّع

لا ينتصرُ العاشقون مهما تمترسوا

و كُلما شدّوا على زهرةٍ

أعلنتْ بينَ أصابعهم موتَها

أوكلت شوكها قبل الرحيل

يمشي على طول الدّرب العتيق في كواحلنا

لا تشدّ على زهرة خرجتْ من ترابٍ أخرجك،

سّرابٌ سيهيم فجأةً أمامها

لا تشدّ على زهرةٍ و لو سقيتها

سرابٌ سيفوق الأفق أمامك امتدادا

وحدي

أحمل جسداً

من جسدٍ أنهكتهُ أذرعُ الشّهواتِ و السفر

ملكتُ نصفهُ الموسوم بمرآتهم

و سُلبتُ نصفهُ المُزرقّ بدفاترهم

وحدي بوجهٍ مؤقتٍ يحملني أمام الحرّاس لزاويتي

أشد بينَ الغمامِ و الغمامِ أزري

لأترعَ الروح الفارهة من ظل التحية

أهزّ بأصابعي المكسورةِ

رأساً اختلّ بينَ الغمام لأضرب ألفَ تحية

كانَ عليّ ألا أقبّل من أوراقِ المدينةِ ثغراً

أن أتماهى مع الخطيئةِ

أتحايلَ على كفي

لأشيّد من هذا الخراب جسراً

و أخطو بينَ الأفئدةِ التي ارتمت

أنبتُ من شِغافها جلدا

لا تغويهِ قشعريرةٌ

إن مرّ تموّجٌ للعصفِ الأول على خدّي

يا غافياً قربَ البركان لتباركَ غفوته

فولاذُ النصر الذي قدّسته قد أمض عظمنا

خذه

خذ كل الحصونِ و امنحني فلوتهاردّ للعصفِ المَهيبِ صوته

ردّ للجرفِ الذي بكى رمله

ردّني منهُ أسقطَ ثانيةً و أومي للستار النّحاسي بلحظي

و لحظِ ساعدي المبلل برذاذِ ساقيةٍ تميلُ كلما أشفقت عليّ أن أجفّ و أنكسر

ياغافياً قربَ البركانِ لتبارك غفوته

ما أقعد الحمام على حبلٍ مشنقةٍ

وما

فضّ اشتباكَ الرّيش

لما همّوا بنحره

يا لاجئاً جُنّدت ألف مقصلةٍ

كي تمضي بنحره

يا بُحّة الخطاباتِ التي

ناحت من نایاتِ الهواءِ ونامت في قصبه

مالكَ أسرفتَ في هذا الرحيل

مللتَ النارَ تمشي إليكَ رويدا

ها أنتَ ذا تلفّ الروحَ بالجبسِ

خوفاً من سياطِ الحدودِ تكسرها

و هاهي الروح تغوصُ في وحلِ الحدود

كم حلت عبثاً كيما تتكسر !

عبد الرحمن القلق

عدت وسليم الى حمص سعيدة أني استطعت أن أساعد شخصاً ما، ولو كدت أموت نزفاً نقطة نقطة، تتسع الدماء عند سقوطها كثيراً ، أكثر مما هي تجري في عروقنا، سقطت في بلادي قطرة، تحولت بعد عام من الدماء، إلى شلالات، تحتاج بلاد أخرى تسقط بها، لو لم يزيلوا آثارها بالمياه، لغرق العالم بدماء شباب فلسطين.

خرجت مع صدام إلى أحد المقاهي التي تضج بصوت فيروز، أراد أن يقرأ لي الجديد في روايته، سألته لم لا تكتب عن القضية الفلسطينية؟ فأنت ككاتب ومحلل عسكري يجب أن تشدك مسألة كهذه، أجاب أنه يرى أن الحق في القضية الفلسطينية يقع على كاهل الفلسطينيين، فلو لم يتركوا بلادهم لما حل بهم ظلام الشتات.

جن جنوني، لم تتحدث هكذا؟ كانوا مجبرين، فقد قصفت الدبابات بيوتهم، خرجوا بدافع الشرف لا الهروب، لم تكن من عادة الشعب الفلسطيني، عندما تجد الذئب يلاحق طهر عذراء تتخيلها ابنتك، يجب عليك أن تخبأها في مكان آمن، في بلد آخر ونبضها في قلبك، وتعود حاملاً رشاشاً، تفرغ رصاصك في فم القاتل، إنَّ خروجنا من أرضنا لم يكن بخيانة، لم خرجتم أنتم من وطنكم؟ لم خرج العراقيون؟ لم تضعون اللوم على الحلقة الأضعف دائماً، الله ناصر حقنا.

- اهدئي، مجرد رأي يجب أن تتقبليه، لا أتناول الحديث على أني ممتن مما أصابكم بالعكس أنا حميتكم يوماً ما.

قاطعته وكلي قوة:

- أي جرأة تلك التي تتكلم بها عن شعبي، قلت إن رحيلنا خيانة دون أن تفصح تماماً،إن غياب حقنا لا يزال يفرض صفة البقاء لن أسمح لك بالحديث عنها هكذا، خرجنا بدافع الشرف وسنعود لإعادة الشرف، لكن ليس شرفنا فهو لم يمسه عهرهم بل شرف الأمة العربية.

- اهدئي عزيزتي، قلت لك إني قاتلت في سبيل حمايتكم يوما ما.

أجبته بتهكم:

- ماذا فعلت؟ وكلي ثقة أنه لم يفعل شيئاً. أعظم ما كان ليفعله هو أن يكتب في سبيلنا قصيدة غير مؤمن بها.
- في يوم من الأيام عندما كنت ضابطاً في الجيش اللبناني، فأنا كما تعلمين خبير في آليات استخدام الأسلحة، تزامن ذاك مع تواجد إرهابيين في إحدى المخيمات اللبنانية يدعى مخيم نهر البارد، فوكلت أنا بتطهيره من رجسهم، وقدت العملية وأديت مهمتي بشرف.

قاطع حديثه صوت شهقاتي وبكائي المرتفع، بكائي المجنون، تركت المكان راكضة، لا أدري إلى أين، ركضت ركضت في الشارع وأنا أبكي والناس تنظر لي، وكان يلحقني استطاع اللحاق بي، أمسك يدي فصفعته، رأيته مصدوماً يصرخ يقول لي ما بكِ؟

حاولت أن أبعده عني إلا أنه أبى، ضمني وتلوث قمصيه بكحلي الأسود، بكيت بكيت على صدره، دفعته عني، وواصلت ركضي، إلى أين أذهب لم أكن أدري، أثناء ركضي وقعت عدة مرات على الأرض، ثم عدت أركض، مجنونة أنا، آه، يا ليتي مجنونة، لكنت ما فهمت ما قال، ركضت بلا وعي إلى بيتي، تخبطت كمجنونة بلهاء، دخلت البيت تركت الباب مفتوحاً خيل لي الواقع بالخيال ما سمعت منه أحقيقة؟

أهو الصدى لعب لعبة قذرة، فرد لي صوتاً شبيها بصوتك، أأنت عاشقي أم قاتلي؟

بعد ليلة من البكاء، قررت أن أهجره، أهجره للأبد، أرسلت له رسالة نصية في اليوم التالي كتبت فيها:

"أنا من مخيم البارد، وأهلي قتلوا بانتصارك المشرف عزيزي، شكراً لك على ما قدمت، ستصلك مفاتيح الاستديو"

لم الحياة بشعة هكذا؟ ووقفت أمام المرآة كثيراً، مطولاً، بدموعي، بكيت غرقت، إني أرى عرس الوطن بلبس ثوبه الأحمر من جديد تكسب الحمامات شيئاً من بياضها، الأرض الخضراء، أزهر الربيع على عجل هذه المرة، غيرت الكرة الأرضية دورانها، تكاتفت اصناف المشاة في الطرقات، تتبعني حواجز، أتعلم بكلماتي، تحتي أرض متقهقرة، فوقي سماء ممتدة، لم أكن بحق أدري إن كنت معلقة في السماء أم معلقة في الأرض؟ أو إن كنت معلقة بينهما؟ رغبة عارمة في الهروب تلك التي تملكتني، يخدش الأنين في صدري، أبكي على نفسي بصوت عال، أبكي على وطني، بقهر ولم أعد أرغب في البكاء مللت كل شيء، تخيلي صورته، رؤية عيونه في كل الأنحاء، شعوري بخيانته، يشعرني أني خائنة لم أعد أحتمل، أهرب من نفسي لأجد نفس اتجاهه، آهٍ كم أنا أكرهه وكم أنا أتنفس به، وصلتني رسالة منه، كتب فيها: "أحبك".

لم أجب، بكيت بكيت بكيت، حتى امتلأت الكرة الأرضية دموعاً، فنزلت من مكانها وتاهت في المجرات، أيجب أن أموت فيه ليقول لي أحبك؟

وصلتني رسالة أخرى منه:

"لم أكن أقصد قتل أي بريء أقسم، كنت أقاتل مجموعات إرهابية متطرفة، قمت بواجبي فقط". أرسلت إليه:

"إن المجموعات الإرهابية ليست من المخيم، دُسَّتْ من قِبل الإرهابيين الأصليين الأمريكيين، إن التنظيمات الارهابية صنيعة ضغائن اليهود، وصنعت في المخيم بمنهجية فكرية بغرض تصفية اللاجئ الفلسطيني، وضرب القضية الفلسطينية في عمقها"

أرسل لي: "وما ذنبي أنا في ما جرى؟"

رددت: "إن الله وهب العقل الإنسان ليميز بين الصحيح والخاطئ، وإن فعلتك حماقة، لم يكن يخدم فكراً أو يحقق هدفاً، ليسمو بنفسه عالياً، من غير المعقول أن تقتل روحاً بريئة لتودي أخرى مجرمة قتيلة أيضاً، لم وضعت نفسك في غير مكانها؟ لطخت يديك بدماء بريئة. أمي وأبي، يتمي، قهري، وحدتي كل شيء بسببك قبل أن تقدم على تصرفك لمَ لم تفكر؟ لم العقل هبة من الله، لم نحن نغيبها، أعتذر منك لن أتقبل قاتلاً"

وعلى الرغم من قوة كلماتي وجزالتها، كنت منهارة،أرسل لي بطريقة نزار قباني قصيدة علها صفعت مشاعري، فهو لم يزل في سياسته نفسها يمارس تقاليد البقاء بغيابه يرسي وجوده برحيله:

"لم أعهد قط لنبراتها أن تكون ساحرة إلى هذا الحد، تقتلني، تكبلني بسحرها، أواه، كيف جعلتني مشعوذاً، وعجوزاً هرماً، وشاباً عاشقاً، ومراقباً لا يبالي، ورجلاً يتأهب للزواج؟ كيف جعلتني بيضاء مثلك؟ أجرب الأعمار جميعها بثانية؟ كيف تجعلني بيضاء أكتب لها؟ من تكونين ومن أكون أنا، أنا الذي أضعفت الجميع لي، جعلت السنابل تبكي على أطلال الحيتان، غنى العصفور لحدتي جازعاً من قوتي، خائفاً، أنا الذي قيدت السلاسل وصهرت من قوتي حديدها، كتبت للحزم والصرامة، أكتب عشقاً لكِ لا أريد أن يرحل غرامكِ عني، أخاف رحيله، أريد بقاءه، كيف تشطرني هكذا، كالبحر نصفين، أنت المد وأنا جزرك"

على الرغم من أن كلماته أسرتني إلا أنني ممكن أن أتهاون في كل شيء، تسامحه على خيانته لي، نعم، لكن أن يكون قاتلاً، لم يكن خطأ، كانت الخطيئة من اقترافه، كما تتاجر بعض النساء بأجسادهن، يتاجر بعضهم بأخلاقه، والعموم بأحلامه.

يوم رأيت عصفورة تحلق بين أغصان شجرتنا الهرمة، تذكرتك، قارنت قسوتك برقتها نظراتك الحادة بصغر حجم منقارها، كلاكما مخلوقان، كلاكما تعيسان، كلاكما يمتلك مقومات الحياة، فلم غرورك هذا؟

من أنت حتى تقيد السلاسل وتقهرها، من أنت لتبكِ الأحياء لك؟ لم تعطي نفسك صفات ألوهية؟ الطبيعة لا تخضع لغير الله وحده، كعصفورتي أنت سجين، يطيرك عشقك، فتعيدك القيود مكبلاً على وجهك مقلوباً إلي، أمر لك جدائل شعري فتأتي تمسكها لتنجو، أقص شعري، تبكي على حالي وأبكي أنا عليك، تخيل لقد جعلت كل شيء يتألم، حتى الجديلة خشيت أنها انفكت!

كما أني كنت ذاك الطائر الصغير، الذي تأخرت هجرته مع أقرانه، لم أدر إن كان أبناء شعبي عصافيراً، أم صقور؟

قررت بعد قصة حبي لك أن ألتحق بالسرب فأكمل دورة التاريخ وأعيد حكايات المنفى، نعم نحن شعب الشتات؟

تألمت كثيراً، فتاة رقيقة مثلي أضعف من أن تكون في هذا الموضع، أرد عليه بقوة ويعتقد أني أكرهه، ولم يكن يدري قط أني أبكي على صورته كل ليلة، دون أن أشعل الشموع، كان وجهه يكفيني لأكمل حياتي بشجاعة، عندما أرى أنفاسه أشعر أني حبه، عندما تهجم معه تضاريس وطن أحبه، ولا أملك أي تبرير لحبي له، أرى فيه الكون بألوانه جلال العاطفة بسحرها، بعيد عني، جرحني لكني أحبه، كلما رأيته كان حبي له يزداد، أرغب في أن أنتشل قلبي مني عله يغادرني بفراقي لقلبي، لكني

أخاف عليه من أن يرد إذا انتزعت قلبي في الليل ورميته، من أين أتى لي بمعطف هذا الكم الهائل من الدماء؟

أرغب أن أستيقظ ذات يوم فأجدني خالية منه خالية منه تماماً، لو أن السماء تتوقف عن رسم وجهه كانت حياتي بوجوده أجمل، أصبحت اليوم أعجز كيف له أن يشطر قلبي بهذا الشكل؟

أصبحت مريضة نفسية، مجنونة به، في غيابه، مهملة له بحضوره، أحبه لا أعلم سوى هذا، لا أستطيع كبح جماح قلبي، ولا أختزل مشاعري، ضائعة ما بين جمال حلمي ووحشية واقعي، أقفال الكون لو وضعت على قلبي لن توقف صداعي معه، ولا صراعي مع ذاتي، طلب الزواج مني فرفضت، توسل كثيراً، فأقنعت نفسي أني لم أسمع، أرسل لي بعد شهر على فراقنا:

"تمر القاطرة والمقطورة على الشوارع فتهبط بدهستها علوها، يبدو لي أن مرورك في حياتي كان تلك القاطرة وكنت الأرض التي هشمت، أتراكِ تعاودين الدهس مجدداً على مقبض السرعة، فتدوسين أرصفتي آلاف المرات دون رحمة، حتى أتحول من شارع مساو للمشاة إلى طريق مواز للقبر، فأحضن جثث الجرحى هنا في قلبي، حورية أفتقدك جداً"

دائماً كان يناديني حورية يقول أني حوريته، حوريته التي لم يعد يحلم أن يمتلكها حتى في الجنان فالله لا يغفر الدم.

تحدياً له لم أرد، خلعت نجمته التي أهداني إياها بعد عام كامل على ارتدائها، قصصت شعري، وعدت إلى جامعتي، أحاول أن أجدد نفسي.

عدت أحمل دفاتري الجامعية، تائهة ما بين اسم الفاعل، من الذي فعل الخطأ، اسم الآلة: من الذي رمى القذيفة عشوائياً حتى تناثرت كيفما كان، فوصلت مؤخرة

دماغي وتجاوزت الخلايا عددها، أصبحت أفكر كثيراً، أكثر من سني، أصبحت أحبك وأكرهك أكثر، من الذي افتعل الموت تساءلت عندما قرأت اسم المفعول، ما أكثر ما يجعلني متعبة؟ متحفظة أنه اسم التفضيل، أتراه هشّم أحلامي تهشيماً وألقى علي درس المفعول المطلق.

في ساحات الأدب العربي تائهة تعجز أي رقعة عن لم شملي، أتراه الخطأ في اللغة أم في قائلها؟ أهو خطأ الضحية أنها ماتت أم أنها خطيئة القاتل.

بحثت كثيراً عن اعتذار، في كل الجوانب مشيت، مستحيلة النجاة من قصة عشق تتحلى أسوارها بالمستحيل.

أذكر حالي، تلك الفترة كان بداخلي شخصان، شخص يبكي على فراقه وشخص يصفع الباكي، وكنت القاضي الحائر بينهما، القاضي الذي يتردد بإطلاق حكم الإعدام على الاثنين.

يبدو أني أضعت عاماً في حبك، وسأضيع باقي عمري على أمل نسيانك على سبيل القبول على الحياة، حاولت إكمالها غير أني مشيت بين الجموع دون أن أهتف بهم، كنت أراك في كل الوجوه أستخدم استعاراتك نفسها التي ترغب في التحرر منها، عندما أغنيك.

أتذكر ذاك التشبيه الذي استخدمته ذات مرة، أن قلب سليم وقع منه مع دمائه التي ملأت الأرض. يمتلكني نفس الشعور لكني أشعر أني هبطت من ذروة الكرة الأرضية، وصوت صراخي ملأ الفراغ ولا أزال تائهة في عالم الفراغ، أحاول التمسك بأي جرة، وجدت الكرة الأرضية، فابتعدت عنها، فضلت أن أسبح بين المجرات عل نيرانك داخلي تخبو.

لا أزال سابحة في المدى، أصرخ ويرجع بأنيني الصدى، أرغب أن أعود لي، قبل أن أعود لكوكبي، أخشى أن الكرة الأرضية قد أوقفت دورتها مذ غادرتك، يبدو أن رحيلك أوقف كل شيء.

مشيت ذات يوم أيضاً في الأسواق أتجول، رأيت قميصاً كنت تملك نفسه، دخلت المتجر وكلي أمل أن ألقاك داخله، لكني قابلت أحداً يشبهك. لم يكن شيء بك سوى مرآتي، ابتعت القميص دون وعي، وعدت مسرعة للبيت أرتديه لكني لم أشعر بالدفء، لم يكن يمتلك صورتك نفسها، ولا احتوت أزراره رجولتك، كنت تبث بالثياب قوتك.

صدام، أعد لي قميصك، خصلة شعر، شيء من قلبي أودعني وشبه قميصك نكرهك معاً.

كنت أعلم أنك رأيت نفسي، فستاني، لكن لم تجرؤ قط أن تقترف خطيئة شرائه، فاهتزاز رجولتك سيدوي سماءً وأرضاً، أرضاً فراغاً، فراغ أنت تحياه بسببي، لكنك خبأت صورته داخل قلبك ورقصت معي يوم ارتديته في حلمك لم تكن قط أضعف من يومي هذا، متناقضة أنا، وجع الأحشاء جميعها لا يساوي قطرة في بحر وجع القلب، وجع القلب يجعلك ترى الأعراس أتراحاً، الابتسامات نواحاً، ماشياً ذا أطراف متناثرة مفقودة، مبتورة الأحلام تائهة في الواقع، شعرت أنك صدمتني حتى أصابتني صدمتك بالشلل.

أصبحت عاجزة، تخيلتك رأيتني وأنا أعتلي الكرسي المتحرك، فركضت نحوي أمسكت يديّ بكيت جداً، لامست خصلات شعري، ضممتني وأنت تبكي، كنت في خيالي صامتة كما أنا خرساء الآن، تلك الفتاة التي كانت داخلي، لطالما شعرت أن مصيري مرتبط بمصيرها، غابت غابت تماماً، يبدو لي أنني أخطأت حين ظننتها ملكاً مصيرياً.

رأيت في حلمي المشلول تلك الجارة التي كانت تجاورنا في البيت، تسكنني في الذكرى،أحبت في صباها هنجعياً يلعب بها، ليس ككرة قدم بل كحجرة لأنفاس بطيئة، يحرقها بحبه وبرود يجعلها تختنق.

أبعد من هذا المدى قررت أن تقرأ يوماً كتبه علك تفهمه، قرأت تاريخ الشعوب ولم تستفد شيئاً سوى القسوة، قسوة هتلر، فيتجاهله، وتجاهلت صوتها الباكي وأنين الجنون داخلها، لا تبتعدي عنه إنه الحياة، كانت تجلد مشاعرها دون رحمة لم تكن الحياة يوماً رجلاً.

على سبيل دورة الأيام المبتهجة كانت تحبه وتكرهه، حاقدة عليه، تراقبه من خلفه.

يوم سمعت أن المرض ما وجد سواه ليغزوه فخضع لعملية خسر بسببها وظيفته

كانت تحادثه وراء الزجاج، تمسك روحه لا يده، رحمه القدر، عنفوان الطهر، أيضاً وسيلة الرب ليجد وظيفة تعيل أسرته، كان يبدو أنانياً أكثر مما تتطلب الأنانية، ما زال يحوم حولها، لكن هذه المرة ليس عبثاً، بل علقاً بها، أصبح متشعباً بها كسمكة تقع في شباك صائدها، رمى بها حوت خارج البحر لتتوسد الشاطئ، لم تجد من يصطادها، كانت قسوته أصعب من أن يحتويها أحد، كان مجنوناً بها وكانت هاربة منه، تسارعت سيارته نحوها، وحقق أمامها بسرعة كان كل شيء يجن، حتى النوافذ، مفاتيح السيارة، اصطدمت السيارتان، شلت بفعله وانهار بشللها، أي سطوة امتلاك تلك التي تتربع عرش تفكير الرجال، صدام القاسي عشق في النهاية، ملكهم هتلر، أورثهم شيئاً من قسوته، كان نازياً أكثر مما تطلبت النازية، بالقسوة كان يتخيل كل شيء، أن الرحمة خيانة للطبيعة والقسوة أداة لإخضاع القلوب، لولا قتل الضعفاء لما كان حاكماً، هو هتلر الذي غزا أوروبا كاملة، وصل لقمة النجاح دون تعليق أي رتبة عسكرية أو الوصول للمنصب بواسطة تحكم الواقع حالياً.

هتلر القاسي الذي صدح بفك معالم اللاإنسانية كان عاشقاً، تخلى عنه معظم جند الأمة في الحرب العالمية الثانية، جن جنونه فهم ما عادوا يسمعون أوامره، أصبحو يملون عليه أنباء هزائمه. صرخ بالجميع ارحلوا من برلين، إلا أن عشقيته التي رقصت أثناء القصف، صعدت الطاولة وجعلت الجميع حولها سعيداً، كانت تتحدى الموت بسمتها، تحطم إرادة الموت برقصتها في الجهة المقابلة للمستحيل تواجدت.

همست لهتلر، لن أرحل وكانت القوات الروسية على بعد عشرين ساعة من وصولهم، القصد تزوجها هتلر، كانت قسوته أضعف من حب إمراة، هتلر القاسي كان عاشقاً، وهو الذي حارب الإنسانية فعل نقيضه، تجرأت إنسانيته عليه فحولت مشاعره حباً، أتراها طائرات الفرنسيين تقصفني اليوم فتهدم حصون هتلر داخلي؟

هتلر السيئ، الذي أهلك البشر، أراه أمامي لكن بصورة مختلفة تماماً، عندما يتعلق الأمر بوطن، بدم وثورة واغتصاب يجب ألا أفكر مليا بالكيفية، الجناة من قصة عشقي تصادم.

حكي يوماً أن دماً من كتاب التاريخ سال، فسأل لماذا يستبيحون دم أولي الإسراء والمعراج؟ وكأنه الخطيئة، أو لم تصلب قصصهم بهذا الشكل، من الذي حشد لهم مدافع الموت فدك بيوتهم، جثثاً جثثاً منكلاً بها، كحقهم تماماً.

نهر البارد، الذي قلت دائماً أنه لم يسقط، وهو الذي دوى سقوطه من السماء للأرض وارتطم برماد الموت حينما رحلنا، وهو الذي مات لحظة غيابها، جثث أحياء تتراقص عليها أشباح الموت، تتقاذفهم الصفحات ألماً، تبكيهم الدموع وجعاً، ويبقون هم لوحدهم، تحت رداء الموت ماكثين.

حكى التاريخ يوماً أن ظل الموت عقد مؤتمراً مع الزمن فكانت مقررات المؤتمر أن شعباً استحق الحياة حكم عليه بالزوال لجوءاً، جوعاً، شنقاً، ذبحاً، تنكيلاً، صلباً،

قيل ذات يوم أن الشعب ذاك نفسه أوقف هدر الشلال، وكتب للمستقبل فلعقته الكثبان على عجل، قصته ملأ السماء صراخها، صيحات تدوي مذ الأزل، فلسطين تصل واسم السامع اللاأحد، في كل جدار دست قلوبنا.

فلسطين، مخيم نهر البارد، في سكناته في محلاته، مع ضحكاته، أطفاله، هو حال شعب لاجئ كان يحلم بالعودة لأرضه فأصبح يحلم بالعودة فقط، بالعودة لنفسه، أي خيار وسخ ذاك الذي اعتلى الغوش، ولأقل: أي ضمير ميت ذاك الذي يحيي في النفوس مناشدات إنسانية تطلق على المدى، تجوب أقطاب السماء فتصدم بنجومها، أو تشع النجوم لغير الضوء؟

وماذا يعطينا ضوء نجم لقصص حاك التاريخ لها أعلام سوداء منكلة، جثث مكبلة بدون قيود تنتشر، مخيم كامل قتل، ولم أكن أدري أهو الآن قتل؟

أم مذ سقطت أول قطرة فتلون الغمام بها، فأقفل الباب على نفسه وبكى حتى يومها مع الحياة رحل، لم يتوجب على التاريخ أن يعيد نفسه دائماً، وامتزج مع شروق الشمس فأصبحت خافتة كوقف المغيب.

دم يسيل على الحشائش فيصبح لونها قاتماً أسود، دم يلون أشرعة الحياة فيكسر القارب ويحطم سترة النجاة.

الدماء التي تجري بالبشر لم تكن يوماً دماء هذيان شعب أقفلوا عليه وطنه، فما نحن، ثم أعادوا اللجوء ورموه أيضاً من لجوء للجوء، ولكن أيعقل أن يكون شعبي بدماء الوطن اليوم قد كسر؟

كان المخيم أم تحمل لنا في رحمها وطناً، نفي ساعة المخاض أنجب لنا جنيناً ميتاً لم يأبه به أحد، لم يأبه أحد بعذابها في حمله لأعوام، ولا لصراخها حين ولادته ولا حتى لموت الجنين، المخيم الذي كان لنا، عرفات، درويش، كنفاني، أصبح مجرد

ألبوم صور يحملها أصحابها، يوماً بعد يوم نخافه أن ينسينا إياه الزمن، قضية يتنازع حولها المتخاصمون فتبدأ القصة كالعادة تنتحب، لم أعد أدري إن كانت القصة مثلي لا قدرة لها على حمل كل تلك الشهقات السياسية، ونزاعات الفصائل، والسباب على المنظمات، والانقسامات الفلسطينية التي تضر بعمل القضية، أصبح كل شيء مضطرب، أكتب الآن، أنا اللاجئ المتوحد مع حزني الصارخ في أنيني الثائر في منفاي، أنا الذي كنت أرى المخيم والدي فلم كتبت علي الحياة اليتم مرتين؟

أنا شعبي، شعبي الذي يموت، يقتل، المخيم الذي أبيد، الشتات الذي يعاود دق الأبواب، ماذا قدم كل منا للقضية؟ غير الشتائم والانتهاكات بحق الفصائل؟ أين الحق في تهميش أنفسنا عن نصرة قضيتنا ومطالبة غيرنا بإنصافها؟ لم أعد أعتكف كعادتي في خضم مشاعري، أصبح كل شيء مختلف حتى الحروف تختنق، من ذا الذي يكتب شعراً في مديح مدائن المنفى؟ ومن يدري إن كان المخيم سيصبح قصة كالتي سبقته، فلسطين. اسم نعلقه على جدران ذاكرتنا، نعانق تاريخ موته سنوياً كتذكار على يوم المأتمة، أو يعقل أن يكون المخيم قد رحل؟

عل حزني مبالغ فيه، لكني أرى أن المخيم لم يكن قط أموت من يومنا هذا، أموت مني، ومن وطني، من أبي الذي أنجبني من عقر اليأس لأكون ابنة الصواب المخطئة، أين أين أنت؟ أتذكرُ حينَ قلتَ لي اكتبي يا ابنتي، أجبتكَ بسعادةٍ لمن أكتب؟ قلتَ: اكتبي للوطن.

أنسيتَ حينَ قلتَ مرةَ: إنَ الوطنَ يُظلم بجورِ أهله، لِمن أكتب يا أبت؟

أكتبُ لعربٍ بلا هوية. أكتبُ لقضيةٍ هاجرَ شبابها غرقاً للسماء، أأكتبُ للوطن الحنون الذي أصبحَ جائراً بجورٍ شعبه، أبتِ: هلا رتبتَ لكلماتكِ موعداً نلتقي لتقلني إلى حافةِ الصواب، أأدرسُ التاريخ لأبكي هزائمنا وخياناتنا المفتعلة عنوة؟

أأدرسُ الجغرافيا لأدركَ أن بلادنا العربية كلها محتلة من شرقها لغربها؟ بل لأوثق فعلياً على أي شهقةِ جبلِ غرسَ العدو شارةَ نصرهِ فوقَ ضروحِ الشرفاء واقفاً لجانبِ خواننا!

أأدرسُ القوميةَ لأحفظَ أكاذيبَ ما يدعون؟ أأكتبُ لعربٍ بلا شرفٍ ولا عنوان. صدقني أنفعُ كتابة الشطآن، تحملُ الغرقى قوافلاً على متنِ رمالها، أحادثكَ عن زمنٍ تاهت به خطواتنا حتى ضلَ الظلُ أجسادنا فغصنا في بحورِ منَ الجهلِ مسورٍ بالأحزان.

أأحادثكَ عن مكةَ المنيرةَ مغلقةً بوجهِ أمةِ فاتحها؟ أم عن أنينِ العراقِ والقدسِ المستباح؟ أعن قيس منعم في القصرِ يعاشر جواريه بوضاعةٍ؟ أم عن طابورِ المساعداتِ الإنسانيةِ المرسلةِ من أيدي قاتلنا الملطخة بدماءِ شهداءنا تخريساً لشعبِ الخيام؟

عن أمةِ أضاعت السيفَ والقلمَ ؟ أم عن فاحشةٍ تدور بنا لم نفهم ان سببها غضبٌ من الجبار؟

لمن أكتب واأبتِ؟ دموعُ الانسانية على طفلٍ نقلت الأمواج جثتهُ إلى الصخر ليلون الكون بمأساةٍ أخرى. أم عن جثةِ شابِ أخذَ الغرق منهُ أحلامهُ وحقيبتهُ المملؤة بدعواتِ أمه الثكلى؟

أأبكِ الطفلَ الذي دمره الحاضر؟ أم ذاكَ الشاب الذي خرج يبني مستقبلهُ فقتلهُ حاضره خنقاً بأمواجِ الحربِ المكللةِ بالنزاعات؟ أكلمكَ عن قدسٍ ينزفُ دماً منهُ يفضُ العدو شرفَ الأمةِ؟

شرفُ الأمة غير الموجود أصلاً. عن شتائم وتحقير سائدِ، في المجتمع العربي لمجردِ آراء .

عن كرهٍ وتخوينٍ حتى يتوقف كل شيء سوى ذرائعُ الجهلِ فهي مغروسة بنا وكأننا الفوز وكأنها الجنان، أكلمكَ اكثر... عن رحيلِ الناسِ أشتاتاً للسماء ليحدثوا ضجة في علوها، أم عن صرخاتِ أولي الحربِ في الأرضِ لتنفجرَ الكرة الأرضية من هولِ الحادثةِ، وتستمرُ العاهرةُ بممارسةِ عهرها كأنَ صرخاتِ الناسِ شتات؟

أأكتبُ عن الأوطانِ وقد غابت؟ وأنا لم أدرِ في أي منفى أقبع حتى الآن؟ عن الثورةِ المخذولة؟ عن دم الفلسطيني الذي أضحى مُباع؟ ليست القضية في ما كتبت القضية. لمن كتبت؟

شتمتُ الخيانة دون أن يقرأ خائنها، مجدّتُ الصدق دون ان يقرأ العفيف، لأنه أضحى قتيلاً.

لمن أكتب؟ ضاعَ القلمُ عندما انفجر الوطن، وأصبح حبري متناثراً مع أشلائه، غرقَ أيضاً معه اللحنُ والوتر.

أبتِ ارقد هانئاً فكنتُ أحادثُ جثمانكَ لأني لستُ أدري حقاً لمن أكتب؟

يوم أحببتك تمنيت لو أني مت قبل أن نلتقي، خشية أن نفترق، وحين افترقنا أدركت أن في إمكان المرء أن يموت أكثر من مرة، عندها ما عدت أخاف الموت، صار الحب خوفي، ثم قرأت قول أوفيد قبل عصور: الرجال تقتلهم الكراهية، والنساء يقتلهن الحب. فقررت أن أكرهك عساك تجرب الموت مرة واحدة.

احلام مستغانمي

أليسار ، حمص

صحيح أن رحيلك لم يزدك إلا بؤسا، لكن، النسيان فرض كما الحب حق، صحيح تماماً أن ما جرى جعل مني يتيمة وثكلى وأرملة، لكن أيضاً الحياة تجارب، وصلتني آخر رسائله وكان قد سمح لي بغناء شيء من روايته، الحل المنطقي لأي فتاة هو الرفض لكن أنا كانت ردتي مختلفة، وافقت على عرضه، اعتليت خشبة المسرح أغني مقتطفات من رواية له تتكلم عن الأسرى العراقيين في السجون تحت ظلم أمريكا.

غنيتها بقوة، ولاقت نجاحاً شعرت به، وأنا لا أزال أغني، عندما أغني أشعر أني أمتلك العالم، بعد أن انتهت فقرتي، قررت ولأول مرة أن أغني على الملأ شيئاً عاطفياً، فبدأت الغناء، كنت أريد أن أجرد نفسي تماماً لأحمي روحي، ولي الحق أن أنسى، ما دمت قاتلاً، ما دمت مقفراً ظالماً، في ظلك كانت كل المشاعر من حقي، ليتك موج بحر هرم، أقتلع منه مده وجزره، يدور هذيانك بعواصفي فأقتلعك مرتين، مرة بعواطفي ومرة بهذياني، أولم تكن عوداً أقطع منه الحبال وأسرق النغم والوتر، بل ليتك صوت، فأقتلع حنجرتك وأصدح عنك بصمتك، ولا لن أفك أسرك، وياليتك ورق ألاحق الحرف فامحوها، وأخبئ رمادك في جيوب الليل، تمطر السماء فتبلل قلبك حبات المطر.

أتدري، أنا نجمة، أعتلي فوهة السماء، ليتك نجمة تنعكس صورتها في ظلمة الليل على بقعة من المياه الصافية فأدوس صورتك بقدماي حتى تتبعثر كأشعة قمر، لأجل وطني وشعبي ونفسي قررت أن أكون قوية، أدرك تماماً حتى لو لم أره أنه فيَّ يبكي، وسبب دموعه صوتي، كطائرة تحمل الركاب يتلون الغمام، تبسمهم ساعة، وبكاؤهم ساعة، قررت أن أحتل طائرات الغربة وألوان القمم، يبدو أن دوري قد حان. قررت امتطاء الطائرة عائدة إلى نفسي، رجل اللامباشرة ذاك الذي أصبح يباشرني،

يباغتني، يخلق العجائب، يسافر مع أليس، يتوه في بلاد العجائب، يستفز سرعة الأرنب المتكلم فيخرسه غصباً، يكبل الفيل الكبير فيسخف حجمه كل شيء.

بحكم سطوته، حتى أحلامي كان يسطو عليها فتستوطن مدافعه في قلبي، ويستفز صمامه حتى أضغط زر التفجرات فيموت داخلي رماداً متذبذباً، ويموت برحيل عشقي حريقاً، مقابل وجه الشمس قررت أن أرحل عنه، وأن أتحمل مسؤولية قراري.

أذكر أيضاً أني قرأت رواية "فلتغفري" عدة مرات ، أعجبتني كثيراً ، أضعفتني تماماً تعمق المها في جذوري، خلقت المتناقضات ضدها، تجرعتها لدرجة العكسية فما غفرت.

بعد انهيار دام شهرين، قررت أن أصحو، أن أملك عجلة الأيام وأقودها بنفسي.

أن أجرب شيئاً لم أبحث عنه في حياتي، أن أتعلم شيئاً طالما كنت بعيدة عنه،

لم دائماً أصبحت صدام الشخصية؟ لمَ لمْ أضع في الله، أسمى أنواع الحب على الإطلاق، الله الذي وهب لنا قلوبنا هو أجدى بحبنا، لم أنا بعيدة كل هذا البعد عن ربي، وما سيكون حالي عند موتي، كنت أقضي الليل أبكي في حضرته، لمدة شهرين لم أشهد في حياتي أقوى من هذه الأيام، فقوة الله تغنينا عن كل البشر، شعور الإيمان شعور طاغٍ، يضفي عليك السعادة.

كل قصص الحب الخرافية أو حتى الواقعية، قيس وليلى، عبلة وعنترة، جميعها وصلت لذروة العشق ولم تكتمل بالزواج، فإذاً ليس بإمكاننا الاقتداء بها، أحب الرسول عليه الصلاة والسلام السيدة خديجة، ولم يتزوج كرجل سواها، وتزوج كرسول تسع، الرسول الذي سمّى عام وفاة خديجة بعام الحزن، ظل عمره حزيناً

عليها، كانت قصة الرسول أعظم قصة حب في التاريخ، وبدأت بطريقة سليمة، وانتهت بوفاء عظيم.

أين كنت أنا، لم وضعت نفسي على ضفاف الهاوية، وارتكبت الكثير من الذنوب؟ لمَ لمْ أفكر في عقابي، الحساب؟

الله الحي الباقي، الله الصمد الجبار، لم دخلت في قصة حب ولم أطلب من الله أن يختار لي الخير، لكان أبعده عني، الله لا يخيب أحداً، هو الشاعر بنا، المدبر لنا أمورنا، اللطيف بنا، الشاعر بحالنا، رأفة رسولهِ محمد، كيف غابت حكمته عني، كيف أخرج على الملأ بشعري أوليس فتنة؟ من قتل نفساً بغير حق فكأنما قتل الناس جميعاً، والفتنة أشد من القتل، لم قصصت شعري؟ لمَ لمْ أرتد الحجاب؟ ربي وأنت السميع لنا، البصير بنا، اهدِ أرواحنا لقربك واجعلها تأنس بك وحدك، يا ربِّ ، وأنت الجميل الذي خلقتني جميلاً ، أبقني في كنفك بعيداً عن تشويه ذاتي ، يا ربِّ وكلت نفسي بقربك وكل نفس تقربني إليك، أعطني حرية بقدر عبوديتي لك، يقيناً تقدير أملي فيك ، صبراً يوسع ثقتي برحمتك يا رب اسكب على قلبي الراحة وحول ضعفي قوة ، واعف عن ذاتي، على الرغم من سيئاتي ما زال أملي بك كبيراً، أنت الذي تقبل التوبة عن عبادك وتعفو عن السيئات وتعلم ما يفعلون، واثقة بك ربي، ارحمني، اعف عني، أعتقني، من ترك أمراً لله، عوضه الله خيراً منه في الدنيا والآخرة، تلك هي ثقتي بك، فتركت مفاتن الدنيا لأجلك، ارتديت الحجاب المستور، لم أعد اكتحل، اعتزلت الغناء لأن صوت المرأة عورة ، كل شيء تخليت عنه لم يكن يؤلمني فقربني منك جعلني أفهم معنى الوجود، إن الحياة فانية وأنت الباقي الخالد.

ربي وأنت الذي سيرت الجبال، سيِّر حياتي على نهجك، وأنت الذي تجفف البحار، جفف سيئاتي التي تفوق البحار، أنا الطامعة بكرمك، اللهم إني عبدك أستغفرك وأعلم أن حياتي بك اليوم حرّة، حرّة، أشعر أنك تكفيني عن كل شيء، أريد

من الجميع أن يفهموا ما أدركه عنك، أنّ الذي سيّر سفينة نوح في البحر بقادر على أن يسيّر حياتك، من قبض عيسى إليه ونزل شبيهه فصلب قادرٌ على أن يصلب ظلامك، أنّ من أوحى لسليمان أن يحدث المخلوقات جميعاً قادر على جعل كل شيء يخضع لسلطتك إن رضخت لجبروته، أنّ الذي جعل يوسف عفيفاً لن يتركك في رجس المعصية، من سكب على أيوب صبره لن يتركك منهاراً دون أن يبعث بك شيئاً من قوته، أنّ من أرسل محمداً بالحقّ قادرٌ على أن يُحقَّ حقَّك.

كلُّ الدروب تؤدي إلى الله فلمَ لا نسلكها؟

كل شيء يحدث بسبب ولسبب

ولا مكان للصدفة في أقدارنا

سعود السنعوسي

رحلت عن فترة انهياري حاملة معي حياة أخرى أروع بكثير من تلك التي كنت أنتظرها، الله كفاني عن كل شيء، أستعد لتخرّجي ما بين كتبي جالسة أنا، دقات الباب تعلو وكأن أحدهم جاء بنبأ فظيع لنا لا يحتمل كتمانه، فتحت الباب وجدت العم أبا حسن استغربت منه، ضمني وبدأ يبكي يبكي، ويقول: أليسار، أليسار، تبعته أمل، وكانت تبكي بكاء شديد، لتأتي جورجيت بقليل من الورود وكثير من الدموع.

بعد ساعة انتقلت عدوى البكاء لي أيضاً، ولخالتي، ولكل شيء في المنزل، قبل أن يأتوا لدارنا، كان العم أبو حسن صاعداً إلى بيت أمل يجلب لها بعض الأغراض، لمحت عيناه التلفاز، وقد كانوا يعرضون صوراً لمخيم نهر البارد.

أضافت أمل بأنه صمت كثيراً حتى أتت الصور، وبدأ بالبكاء، تذَكَّرَكِ، وتَذَكَّرَ القلادةَ في عنقك وطلب مني أن أقله، أبو حسن، هو والدي، يا الله!

سقوط حجارة على رأسه أفقدته ذاكرته، ودام ساكناً مدمناً الغياب لمدة خمس سنوات، استفيق لا يعلم عن نفسه شيئاً، لكن الصور المعروضة للمخيم أعادت له الذاكرة.

شعرت أن قربي من الله هو السبب الذي جعل مشاكلي تبدأ بالتفكك، أولها مشكلة يتمي، لم أعد أشعر بالخوف، أصبح لي أب يحميني، قررت الانتقال إلى دمشق لأحيا مع أبي في بيته المتواضع.

أليسار، سر اسمي الذي اكتشفته بعد أعوام طوال، أطلقه والدي علي لأكون قوية كأليسار الملكة التي حكمت قرطاجة، أليسار فتاة هربت من ظلم أخيها وزوجها هربت مع عدد كبير من أنصارها في إحدى السفن الحربية الكبيرة بعد أن أخذت كماً هائلاً من المجوهرات والذهب، قطعت البحر المتوسط وتوقفت في مدينة نابعة بعد البحر أطلقت عليها اسم قرطاجة أي المدينة الجديدة، أسست دولة حكمتها هي،

وازدهرت اقتصادياً سياسياً، وتجارياً، وثقافياً، فكانت أليسار حاكمة رائعة لدولة أوجدتها بفكرها، وإرادتها.

بذاك الفكر وبتلك الإرادة أرادني والدي أن أكون، والذي أقول لولدي أن يكون، نعم ولدي، أكتب روايتي هذه وقد بلغت من عمري الأربعين، في سن الخامسة والعشرين، تزوجت من شاب سوري يدعى أحمد يعمل في مجال الصحافة ويكتب للإنسانية، كان عمله مصوراً، فوثق الكثير من المقالات التي شدّت أنظار العالم وحرّكت مشاعرهم نحو تحقيق أفكاره الطيبة.

من أهم مقالاته التي انتشرت في الصحف الأجنبية بعد ترجمتها:

"لم أستطع أن أنقذ ذاك القارب، كنت رهوباً لأول مرة أرى أمواج البحر نشبت بالقارب تحضن سكانه، تقلب أخشابه، حملت التي التقطت صورة لعشيقين وحب من طرف واحد، البحر يحضن من يحب، يتشبث بهم، المعشوقون يمسكون بحبال الأمل الممتدة من السماء دون مقبض والتي تصور ذلك المشهد الغارق مع نفسه حتى إن لم تستطع أن تنقذ أنفاس بعضهم، صور أنفاسهم الأخيرة علها أنقذت أنفاس أشخاصٍ سيعشقهم البحر يوماً ما، وثق موتاً لتعيد حياة"

اليوم وقد تزوجت من رجل أحلامي، وأنجبت شابين وفتاة، أكتب بملأ قوتي، وأنا التي اعتقدت أني عاجزة عن الكتابة، أثبتُّ موهبتي في كل شيء، في واقع الأمر، ما مررت به كان تجربة، يجب أن أمر بها لأكسب القوة، والصمود، لم أكن بحاجة شخص يجلب لي استديو ويدفع لي نفقات الأغاني، وكأنه يشتري موهبتي، كنت بحاجة لشخص مثل أحمد، يدفعني بحب لتجربة كل شيء، يكون بجانبي، دائماً يشعرني أن فقدي أكبر مصيبة في حياته ولا يختفي بغرض أن أتعلق به.

احتجت شخصاً يقول لي كل يوم أحبك، لا يقدم لي كلمة بعد أن يفقدني، لم يكن صدام خياري الصحيح، كان تجربة فاشلة، تيقنت حقيقة أن خيرة الله خيرٌ من أمانينا، وجاءني من رغب بي كما أنا، شخص يشبه أحلامي كثيراً، تتلون الأيام به.

أخاطب كل فتاة تتكسر لحزنها تظن أن الحياة رجل، السعادة ليست في ارتباطك برجل. بل في تحقيقك ذاتك وإثبات نجاحك في شتى مجالات الحياة، تعلمت كثيراً، من حياتي.

تعلمت أن الحياة تجربة يجب أن أخذ الحكمة منها، وأن الشتيمة للإنسان المنهزم الفارغ من الداخل، المتفرغ للاشيء، وإن الذي يعمل لن يجد وقتاً ليشتم وإن الشاتم يجب أن يكون أفضل من المشتوم حتى يتبع الناس وجهته. تسألني السيدة ليندا مقدمة برنامج "ناجحون نحو النهضة"، والأنجح على مستوى الوطن العربي، كيف تكون ناجحاً؟ فأرد: تبين آية الحق، استمع لكل الأطراف، كن عادلاً متوازنا قدر الممكن، لن تكون سوى إنسان سوي. قد لا توجد الإنسانية في الإنسان أحيانا. تناقضٌ بين أن تكون مالكاً للشيء وبين أن تكون مدعياً بأنك تمتلكه.

ما أهمية العواطف برأيك؟

يتأثر البعض بممتلكاته، والبعض بتياراته الفكرية، من يكون عاطفياً في أمور حياته يغدو عاطفياً حتى في مسائل الرياضيات، وجداول المصطلحات الكيميائية، فيشفق على انكسار المربع، واستدارة الدائرة، وصعوبة المعادلة. يغص على رحيل الأوكسجين، ورمي ثاني أوكسيد الكربون حتى يتأثر بالرموز، فمثلاً ما يكون مفضلاً في بلاد الشام، قد يبدو خطيئة بأنظار السعوديين، وما يبدو حرصاً في السعودية، قد يكون تعصباً في لبنان، ما يُرى على أنه انفتاح في لبنان قد يظن أهل الأردن أنّه الفحشاء، ما يعتقده أهل الأردن حرص يعتقده سواهم قسوة.

الاختلافات الفكرية التي تشتت شملنا، قبل أن تكون مذاهب وطوائف نحن بشر.

تلمع عيناها ضاحكتين، وتقول: من هو الانسان؟

الإنسان، من أنِسَ الشيءَ، من دبت الروح به، فلمَ ندبّ بالأحزان إنسانيتنا؟ وماذا عن الحياة؟ إن الحياة مسؤولية يجب مواجهتها وتحملها، وإن اتخاذنا للقرار يجب أن يكون مدروساً بحيث يسيّر حياتنا بشكل سليم، كما أن الفكر الذي يشد العاطفة هو الشيء الذي يجعلنا نتحرر من أنفسنا، أن ننتفع من الشيء الذي نملكه ونعطيه لغيرنا، وأن العلم لا نفع له إن لم يحمل رسالة سامية وشخصية، وقوة من قال: ما نفع من يدرس علم الأرض دون أن يجد هويته في الصخور؟ ما نفع دراسة علم الوجود والإنسان من الداخل بشع؟ ما نفع دراسة علم النفس دون أن تفهم نفسك؟ ما نفع دراسة علم الاجتماع إن كنت ذا شخصية ضعيفة لا تستطيع شرح فكرك لأحد؟ أو حتى ما الفائدة من حضور مناسبة على الفيس بوك باسم شهيد، أو سماع أغانٍ ثورية تحرك بنا الوطنية، أو حتى ما الفائدة من الدموع المسكوبة من أحداقنا؟

تحتاج الحياة لأكثر من مشاعر، ما بين الضعف والقوة نقطة فاصلة تسمى: القرار. القرار المتمثل بالوعي.

هل التردد دليل ضعف يعيق النجاح برأيك؟

الجرأة مطلوبة لممارسة سلوك التمرد على حياة ستشبعك ضرباً إن لم تكافحها.

ما هو طريق النور؟

لم تكن الحياة لتكسر يوماً شخصاً رغب بتحديها، للحياة قوانينها، أحجياتها، احترامها. قد تؤدي لك مراسم التقديس إن غلبتها، إن تجاوزت ركام ذاكرتك عليك أن تعاود حرقه فتحرف الحزن عن مساره، لم تكن الحياة لتقبل وقفتك بباب الأسى!

تنظر لك بنظرة المنكل بجثته حياً، وتنظر لنفسك نظرة الزوال. إنما الحياة مسؤولية. اقترف بها خطيئة العصيان وتظاهر ضد صعابها. اخلق الطريق المنحني، صل جسر الأمل بفجر الشروق. إن تغد موهوباً تماماً كأن تبدو متحدياً، اكتب لتتنفس، وابك لتضحك، توعك لتطمئن، ارسم لتخلق الصور وتُكبل الألوان، غنِّ لتجدد عمرك، وتبعثر الضوضاء من حولك. احلم بغدك، لتكسب إرادة الوقائع، ضحِّ بما تمتلكه اليوم، لتمتلكه كل يوم.

كن عبداً راضياً يقف مذلولاً على باب عزيزه. اشتق من الظلمة أنواراً. اخلق من عمق عجزك قوة. افرض احترامك على الخلائق باحترامك. اعمل لمستقبلك وكن فخورا بذاتك ممتنا لربك. أعط الأشياء جمالها بطهرك. اغرس صالحاً بنقائك، تابع مشاعر الورود حين يبكي الندى.

فما بالك لو مسحت عن روحك أي طعم للإنسانية، ذاك الذي نمتلكه نحن في لعبة النجاة والسقوط، فهكذا تدور الحياة لتولد مشاعر وتدفن أخرى.

امض نحو هدفك، لا تأبه لأشواك في الطريق، سيخرج من بين الأشواك للبساتين ورود. كن ناصحا لا متسلطاً. كن سامعا لا متمرداً. أعط بلا حدود تسعد.

ابتسمت أكثر، وشعرتُ أنها ترغب بضمي، ثم سألت: ماذا يجب أن يفعل الإنسان بعد نجاحه؟

عظمة النجاح في قدرتك على نقل نجاحك للآخرين، ليصلوا للنجاح الذي وصلت. فتكن أنت صانعاً لنجاحات غيرك المستمدة من جهدك.

فكرك عظيم سيدة اليسار، النجاح صنيعة العقل والعواطف ما رأيك في العاطفة نبلها ووهمها؟

في غالب ظروف الحياة عندما تحزم الظروف أمرها، نكون بحاجة من يثبت لنا فعلياً أنه يحبنا، وليس من يهمس لنا: أحبك.

إن العطاء يحتاج للكثير. تماما كما القضية تحتاج للكثير. صحيح تحتاج لكثير. ماذا تحتاج القضية؟

إن كنا نحن القضية. فلماذا خيباتها لم تترك مجالا سوى لخيبة أخرى؟ إن القضية لا تحتاج شيئا منك، أنت الجالس على شاطئ البحر تتنزه، ولا النقاش في الاتجاه المعاكس ما بين فصيلين يقتتلان، بل يجب أن نتصافح في نقطة واحدة. ولا تحتاج أيضاً إلى تعاطف منا نحن المترفين. إن القضية تحتاج إلى توحيد الصف الفلسطيني أولاً، العربي ثانياً، والكفِّ عن تخوين بعضنا.

تحتاج قضيتنا إلى من يفعل شيئاً في سبيلها، لا لمن ينتقد المتحاورين حولها.

تحتاج على سبيل التفاؤل إلى عدد هائل كأولئك المرابطين في ساحات القدس، وكقوة الأمهات حين يصبحن ثكالى.

إن القضية تحتاج إلى ثورة فكرية أولاً، تتجسد بثورة أسلحة بعدها. تشيد الأمم تماثيل للأشياء التي تفقدها.

ما إيمانك بالمستقبل؟ هل سيأتي يوم نحضن شمس القدس في حيفا؟

نعم.. سيأتي ذاك اليوم الذي ترفع فيه النسوة بالملايين أيديهن ويرقصن في ساحات القدس. سيؤم أحدهم بالجموع في الأقصى. سيبكون فرحاً ويصلون صلاة الشكر، سيتصور الأطفال بجانب ثوار العودة، يرسمون مستقبلهم بالعلم كما فعل أولو الشتت.

سيغني لنا عساف بفرح في زورق يقله الى حيفا، حيث سنجني الثمر مع صور عرفات، وقصائد درويش.

سيصدح صوت أبي عرب بمواويله من تحت التراب لنجعل مالا يُعدّ ويُحصى يشهد علينا.

سنفك الخيام نرميها للسماء تصطدم بأشعة القمر فتتبعثر.

سنُذلّ جبروتهم.

سيحدث ذلك يوما ما.

لكن كل ذلك يحتاج الى ثورة.

ثورة على الذات أولاً، تتحول بثورة على الأفكار.

ستحتاج عودتنا الكثير من التضحيات.

لربما المسافة الزمنية بعيدة عما أقول، لكن ذلك سيحصل ذات يوم.

انتهيت من الكلام، وإذا بسليم يمسك يد زوجته ويدخل الى الاستوديو.

تزوج سليم من إحدى فتيات الميتم الذي عمل فيه.

قال لي: كيف حالك؟

أجبت: وجدت نفسي.

وابتسم، تغير سليم كثيراً، أصبح سليماً حقاً من ذاته، كان يقول لأطفاله دائماً: أنا ابن الفجر، أنجبتني الشمس، لأزرع أشعتها، فوظيفتنا كبشر نشر الخير أينما حللنا.

يجب علينا أن لا نتماهى مع خطيئة الحياة بل مع الحياة نفسها.

يتحدث بإيمانيته تلك كفيلسوف قضى عمره في تحرير الأرواح من زنزاناتها.

ليس من المهم أن أعلم من أمي أو أبي، المهم أنني أعلم من أنا، إيماني بذاتي يجعلني حراً للأبد.

بعد مضي عدة أعوام، وتغيير ملامح الجميع بقيت القلوب تحمل طهرها.

الغياب غياب الروح لا الجسد، المنفى منفى الذات لا الانتساب.

يغيب البعض فيرافقوننا كالأحلام.

ويكون الآخرون بالقرب متلبسين الغياب.

جورجيت تخرجت من كلية الهندسة المدنية، وأسست حياة أسرية مع جوزيف الملحن السوري، وكانا سويا يعملان في مجال حقوق الطفل، ومضت الأيام لندفن سويا جثمان خالتي أحلام إلى جانب زوجها في حمص.

ألفت وطناً جديداً من قلبها، الذي أضاء لليلي سماء.

حادثت طيفها، وزرعت كثيرا من الورود على قبرها.

دعوت في خلوتي لها برحمة تسكن روحها وروحي فأصطبر على فقدها.

رب اغفر لها، وارحمها، وأسكنها فردوسك الأعلى، وارع روحها في جنانك كما رعت يتمي.

السيدة ليندا بعد أن تحررت من زوجها القبيح، تابعت دراساتها العليا في الصحافة والإعلام، لترعاها الفضائية السورية، وتقدم عدة برامج شاركت في شهرتها على مستوى الوطن العربي.

طرحت في برامجها عدة قضايا أخلاقية واجتماعية، أهمها: الحب، والفراق، والزواج، والانفصال، والامتلاك، والفقد. لم أرها تقدس الحزن، لا رأيت الكمال يقدسها.

أما أمل: فشاركت منذ سنوات في برنامج على مستوى الوطن العربي في مجال الشعر والأدب لتحرز المرتبة الثانية.

من هنا بدأت القضية تعانق عطاءها، امتلكت أمل فكراً عظيماً، فبعد فوزها وأخذها مبلغاً مادياً كبيراً، افتتحت مشروعاً تجارياً، ومن مردوداته أطلقت حملة خيرية هدفها تطبيب جرحى الحرب، فكانت تمد بمبالغ مادية المتضررين من الحروب، وكان ذاك أعظم إنجاز رأيته في حياتي، إن كانت الحرب تخلف الدمار فلم لا نلد نحن لبنة الوجود بعطفنا.

أنهي روايتي ..

وقد خرجت آلامها على شكل تجارب استفدت منها إيجابياً .. وغلبت حزنها ..

إن الإنسان الذي يموت ولم يجرب طعم النجاح كان ميتاً في حياته، وهو يتنفس عبق الفراغ ..

إن أردت بإمكانك أن تحقق نجاحك فيما شئت.. يجب أن تقرر فقط ..

أكتب .. قصة صدام .. وجعي منها .. شهادة أخي .. عودة أبي .. وفاة خالتي.. ايمان سليم. صبر السيدة ليندا... عظمة أمل.. قصف البارد .. احتلال فلسطين .. كان كل ذلك ..

كحلمٍ ومضى .

الكاتب الباكي على ضفاف قضيتي.

بيان سلمان

٢٠-٤-٢٠١٥

امتداد الحضارة _ دمشق

بعيدا عنك لونت بقيتي تهت بك عني فاستلقيت في

كنف الأرض أحضن تربتها فأرسمك كانت تعاليمك في

الواقع أجمل ..أبهى كانت تخدشني أكثر وكنت أكن لها

حباالحمقمذقتلتكقررتانارسمكوعندماأحببتك

غنيتكوفيحيناطلقترصاصكنحويبكبري

اغتلتككنتتملك تقاليدي دونانانذنلكاقتحمت

اقتحمتارضيفاسرتكحينزوالكمعبقاؤكتعلمت

انااعتكففيمحرابياصليضدك . اكتباناشيد

تأثريازينهابإسمك .

تعالىصوتالحياةداخليكاسراموتينحنشعب

يستحقالحياةفعلواماشئتمارتكبواالمجازرازرعوا

النكباتاسجنواالصيحاتدمرواالمعازفاغتالواالشعر

وقافيةالعاشقنحنهناسنبقىبدمانانحميامل الحياة وسنحيى